سامى فريد

شمال شرق

تقديم

يحيى حقى



الناشر: دار جهاد للنشر والتوزيع

جهاد للنشر والتوزيع

رسوم هدية من الفنان : **فرج حسن**

شمال شرق



إهداء الطبعة الأولى

إلى طاقة الأمل.. وطريق مفروش بالنور

ومشوار طويل من الأحلام.. والرؤى..

وعذابات التحقق

.. إلى يحيى حقي.. حضن الأمل..

أهدى حضن الليل..

المـــؤلف



إهداء

إلى السيدة التى جمعت كل نساء الأرض
فى امرأة.. والتى مازلت اسمع نبض قلبها
قلقا وايمانا وتشجيعا ومؤازرة..
إلى شريكة مشوار حياتى..
واسمحى لى أن أقبل يديك عرفانا وشكراً..

سامى



مقدمة

للكاتب الكبير

يحيى حقى

ما الذى يغرى انسانا أن يقحم على الناس نفسه ليعرض عليهم مايدور فى رأسه ويقول أنا فنان؟!

لامبرر له إلا إذا بلغ فنه هذا درجة من النضج- لانجدها فى أنفسنا- تحملنا على الأنصات له والانتفاع والاستمتاع به، فلا فن أن لم يكن وليد هذا النضج، نضج العقل والروح والصنعة معا، فالفن يتعالى عن الفجاجة وامشاق التمرينات وعثرات الحبو، أنه يتطلب بلا حياء أمجاد الرفعة والكبرياء، فإذا بلغها احتضنها بخشوع وتواضع، هو حركة إلى أعلى لا إلى أدنى، ليس ثباتا يختلط بالجمود ويشبه الشلل..

آن الأوان لأن أسأل نفسي هذا السؤال:

ما هى القصة التى يعلق بها قلبى؟!

هى باب من أبواب فن القول.. هى تعبير فنى، الجمال غايته القصوى..

هى التى تضيف جديدا بأن تكشف عن بعض جوانب النفس نحن فى غفلة عنها، أو نراها ولا نفهمها، أو نفهمها ولانستطيع التعبير عنها، كلامنا لايحيط بها ولايصل إلى أغوارها ويخلط بينها وبين غيرها، تكشف عن مجال الطبيعة فى صورة جديدة من خلال رؤية إنسان فى موقف معين، فى علائق

بين الناس نمر بها ولا ننتبه لقدرتها وحقها فى إثارة الانتباه، بالعطف والرثاء، بالسخرية والفكاهة..

وهى التى تنقلنا من الصورة الجزئية المباشرة إلى المعنى الكلى وراءها.

هى التى تكشف سريرة الأشياء كما خلقها الله لا كما تبدو للعين فحسب، بزمان ومكان وموقف، ولابد أن تتساقط نوافل التفاصيل تساقط نشارة الخشب من يد صانع الدمية.

وهى التى ننفذ من خلالها إلى روح الكاتب نفسه لنعلم من أى معدن هى، ينبغى أن يكون لها كيان فذ لا يتكرر.. روحه غنية أكثر من قارون، لايفقرها البذل، بل تتحدد عليه، له أسلوبه الذى يميزه، لو عثرت له على ورقة دون توقيع استطعت أن تعرف أنه هو الذى كتبها..

هو اذن كاتب له مذهب حتى ولو كان قائما على الحيرة وحدها ولكنه يرتضيه لنفسه بطبعه وفراسته ودراسته وعدالته ليفسر به الكون ومكان الفرد منه، ولا ضير عليه أن يتحول من مذهب إلى مذهب بعد ذلك، وليس مطالبا بالطبع بأن يشرح لنا السبب، ولكن لامفر من أن يكون له فى كل عمل مذهب تتجمع حوله آراءه ونظراته..

وهى التى تأنف من الأنانية.. فلا تكتفى بأن الاضافة للعلم غاية فى ذاتها يتم بها كيانها ونفعها وحقها فى البقاء.. بل لاتترك هذه الغاية معلقة فى فراغ ولكن تربطها بهموم مجتمعها..

فالكاتب أيا كان حقه فى التفرد انسان فى مجتمع، هو مطالب قبل غيره بتثبيت ثقة هذا المجتمع فى نفسه وإيمانه بفضائله الأصيلة وقدرته على التقدم وتحقيق العدالة وتذوق الجمال..

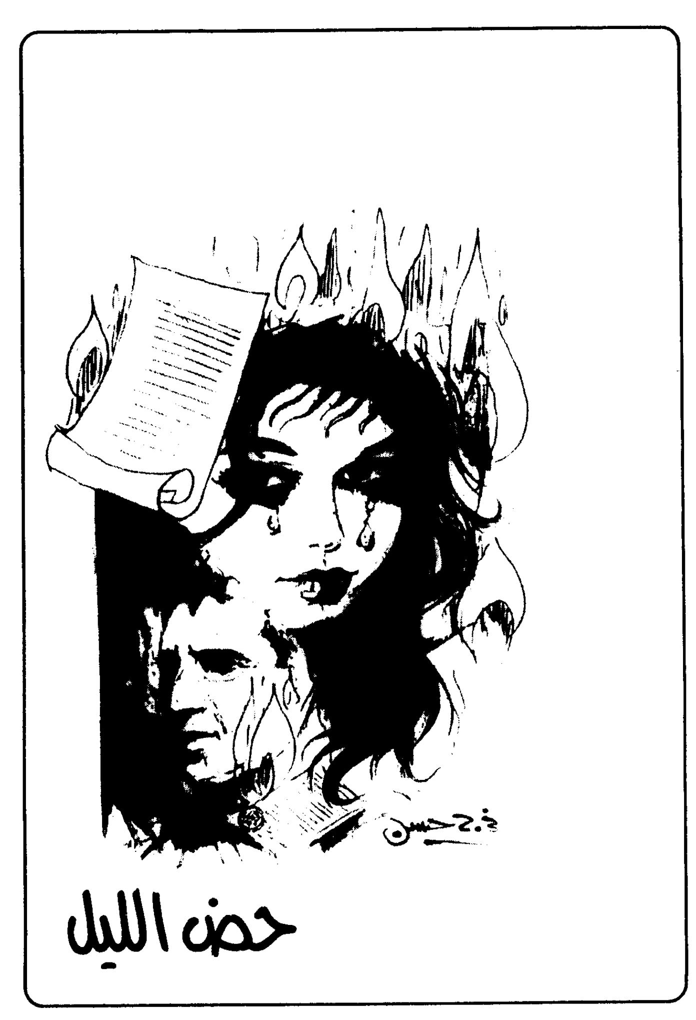
وهى الأنيقة المهذبة.. فلا تكون عامية الذوق فى اختيار مواضيعها وأسلوبها.. حتى فى معالجتها لظواهر العامية ودلالاتها.. بل حتى فى وصفها ومحاولة اعطاء صورة صادقة لها، وليس معنى هذا أن الكاتب لايعنى بالقبح كما يعنى بالجمال، ولكن ينبغى ألا يكون تناوله للقبح غاية فى ذاتها أو خضوعاً لسحره، فللقبح- كما للجمال- سحره، بل يحاول أولا التفريق بين القبيح المنتحر، تعاشر جثته بقية الأحياء غير نادمة ولاخجلى، والقبح الزائف، مرد الحكم عليه ليس من معدنه، بل من انحراف رؤية الناس وفساد حكمهم... إن كلمة تشير إلى العورة هى غاية فى البذاءة إذا لم تخدم غرضا إلا الإشادة بالقبح.. وقد تكون غاية فى الحياء والبراءة اذا أعانت على صدق الرؤية، واندمجت بين بقية مظاهر الحياة، يعمها التناسق.

وهى التى- أخيرا- تكون من حيث الصنعة متقنة، متوازنة، لها ايحاء يزيد ويعلو على جماع الفاظها..

أحسست بهذا كله فى نفسى.. وقلبته فى خاطرى وأنا أقرأ «حضن الليل» ... وها أنذا أتركك لها.. واتركها لك، تستأذن بين يديك لترى فيها أنت رأيك..

يحيى حقى

مصر الجديدة فى ٨٢/٤/٦



الطبعة الثانية



الاسكندرية..

اذان الفجر بعد ليل السهر..

هدأت المدينة وسكت كل شئ... ولم يبق الا صوت البحر ونسمة هواء بارد يتسلل من تحت معطفة ويكاد ينفذ إلى عظامه.. في الرأس مازالت آثار رابع أو خامس كاس كونياك.. يرتعش ضوء فوانيس الشوارع تحت اقدامه فوق بلاط الحارة.. صوت حذائة يرن في السكون له ايقاع.. عوده تحت ابطه وفي فمه سيجارة تتوهج يخرج دخانها مع شبورة الفجر ضباباً كثيفا.. يستعيد بدقات قدميه الأيقاع للحن يحاول الامساك به.. دوم.. تك ددوم دوم.. تك.. دوم دوم.. تك.. كلا.. ليس هو المقام الذى يريد.. أين رأسك يا إبراهيم ياكوته.. اين فنك ياسيد ملحنى عصرك.. ابتسم لنفسه.. في البيت بقايا زجاجة من صنف فاخر هدية من فرح سابق.. تشرب وتدندن ويأتى اللحن كما أتى غيره.. وكما سيأتى كثير.. يطفئ سيجارته ويرفع ياقة معطفة ويسرع مستحثاً الخطى داخلا إلى الحارة الغارقة في الظلام.. قدماه تعرفان الطريق خطوة خطوة من طول مامشته.. يصعد سلالم البيت العتيقة.. في الراس صداع.. وفي القلب جمرة لاتنطفئ.

[٢]

ترتفع شمس الصباح ويزحف ضوء النهار.. يسقط على النافذة ويتسلل متمدداً داخل الغرفة.. يتقلب إبراهيم كوته في فراشه ساحباً الغطاء فوقه.. يبدأ يعى بالتدريج ماحوله... آثار سهرة الأمس بجانب الفراش.. كوبه الفارغ.. والزجاجة..

ادار رأسه يبحث عن العود. لمحه إلى جوار الفراش فمد يده من تحت الغطاء والتقطة واعتدل جالساً.. حاول أن يتذكر شيئاً من لحن الأمس دون جدوى.. الصداع لم يبرح رأسه وبطنه خاوية ونفسه تتوق إلى سيجارة.. أين؟.. مد جسمه على آخره وفرد ذراعه يحاول الوصول إلى معطفه فوق الكرسى فلم يستطع.. لايريد أن يخرج من تحت دفء الغطاء.. سحبه فوقه وخطا نحو المعطف.. أخرج سجائرة وعاد مسرعا إلى فراشه.. سوى نفسه فيه وأشعل سيجارة سحب منها نفسا طويلا وأراح عوده فى حضنه وراح يدندن محاولا أن يتذكر لحن الأمس.. سرح طويلا مع النغم حتى أمسك بالمقام الهارب فتذكر اللحن.. راح يردده على اوتار العود مرة بعد مرة حتى تمكن منه.. الأن أحس بالراحة والدفء معا فقرر الخروج..

وضع معطفة فوق كتفه.. تعثر فى اشيائه المبعثرة فى الحجرة قبل أن يصل إلى الباب.. سحبه خلفه ومضى يهبط السلالم إلى الدنيا الواسعة.

[٣]

عيناه لاتملان النظر إلى الافق البعيد.. فى جيبه جنيهات الأمس وأمامه مراكب الصيد تهتز فوق صفحة البحر.. واللحن مازال يتردد داخل رأسه.. سيعطى هذا اللحن لمدحت ليغنيه.. مدحت؟.. لعله الآن يبحث عنه.. هو يعرف أين يجده.. سيسأل عنه فى المقهى وسيخبروه بأنه خرج إلى البحر.. أو سيجده فى أنتظاره فوق السطوح أمام الحجرة جالساً فى أحد الأركان وسيفاجئه بالخبر.. لحن جديد لك يامدحت تغنية فى الليالى الحلوة.. فوقك الأضواء تلمع بكل الألوان وصوتك يلعلع.. والناس لاتملك نفسها من حلاوة

صوتك ولحن إبراهيم كوته.. لكن هذا اللحن يامدحت ليس أحسن ماصنعت.. صنعت أحسن منه.. وسأصنع لك أحسن وأحسن حتى تكون يامدحت ماأردت أنا نفسي أن أكون ولم استطع لكن عليك بالصبر.. ببطء تصعد السلم لكنك بالتأكيد ستصل.

أنا أعلم فلا تتعجل واسمع كلامي..

إلى متى ياعم أبراهيم والعمر يمضى يوما بعد يوم..

بالصبر ياولدى تبلغ ماتريد.

أحلام الفتى كامواج البحر تصطدم بالصخور فيتطاير رذاذها ويتبدد لكنها أبدالاتهدأ..

أعرف أنك أحسن من سمعت وأفضل تلاميذى لكنى لا أملك أكثر من فنى.. هو كل ماعندى أقدمه لك كما قدمت لغيرك ولا أنتظر من أحد شيئا.. هل تسمعنى.. لا أنتظر من أحد شيئا.

[٤]

رعشة الفرح تهزها.. تنتفض كعصفور بلله المطر.. ترى كل شئ حولها جميلا وسعيداً يبتسم لها ويفيض على الخضرة والزهور أمامها..

ويأتى مدحت..

لم يتأخر يوما عن مو عده منذ التقيا أول مرة.. تعرف بدرية كم هى تحبه وتدفع عمرها لتعرف كم هو يحبها.. تحكى له كل مايخطر على بالها.. كل ماتفكر فيه وتحس به.. تفتح قلبها له ولاتخفى شيئا.. وهو قليل الكلام.. ترى فى عينيه حزنا لاتعرف سببه..

سألته مرة.. أطرق ثم سألها لماذا تسأل.

هو نفسه لايعرف السبب.

تحب صوته الهادئ الواثق المغسول بندى الفجر.. لصوته رائحة الرجولة.. تراه أمامها شجرة ضخمة تحتمي تحتها..

آه لو يفتح قلبه ويتكلم!..

في ذلك اليوم تكلم مدحت.. أنت يابدرية لاتفهمين.. هذا العجوز الخرف يريدنا إلى جواره نمضغ مثله العجز والفشل حتى نذبل ونموت.. هو نفسه تمثال للفشل والضعف.. ليس على لسانه إلا الصبر.. الصبر.. إلى متى يابدرية واحلامنا تفر من بين أصابعنا أمام أعيننا. ونحن ساكتون..

يجرحها هذا الكلام.. ليته لم يتكلم.. المرة الوحيدة التى تمنت فيها أن يتكلم.. وها هو يتكلم تصرخ فيه ليسكت.. تحس بالمرارة داخلها.. هذا العجوز الخرف كما تقول أعطانا حياته.. أعطانا فنه وهو كل حياته.. لم يبخل علينا بما يملك.. ماذا اعطيناه نحن غير الشكوى والسخرية.. وهو يحبنا فهل أحببناه.. الايكفى هذا..؟!

ماذا سيفعل لنا أكثر من هذا.. لماذا لانرحمة.. تندفع فى انفعالها فيرجوها أن تسكت.. كلامها وخزات تطعنه فى قلبه.. لست ضده أنا يابدرية.. اعذرينى.. أنا ضد استسلامه.

لابد من حل يابدرية.. اتفهمين.. لابد من حل.. طريقنا هنا سد.. غدنا لن يولد هنا.. هنا العقم والموت.. اسألى نفسك ماذا حققت أنت مثلا.. كل مجدك هنا أنك حلم السكارى وانصاف النائمين المترنحين على نغمات صوتك بينما أنت تعطيهم من نفسك ذوب احساسك ومشاعرك.. تموتين كل ليلة أملا ويأساً وحباً ولوعة وتقتاتين منهم على آهات اعجاب مخمورة من عقول فارغة مخدرة.. ماذا حققنا يابدرية؟ لاشئ..

لذلك سأغادر هذا البلد.. نعم سأتركه واتركم وأجرب حظي في القاهرة.. لو فشلت سأعود.. لن أنساكم يابدرية صدقيني.. هنا أنساكم لأني هنا أنسى نفسي.. هناك ستكونين.. ستكونين معي.. سأحاول يابدرية.. سأحاول..

[٥]

الشمس باردة.. خلف زجاج النافذة جلس تحت أشعة الشمس.. كفاه في حجرة محنى الظهر يفكر.. تغيب الشمس وتظهر ورجفة البرد تهز الجسد العجوز..

تريد فرصة يامدحت؟.. ليكن.. معك كل الحق.. أحس بكل ماتعاني وأكثر.. لكن ماذا أفعل؟.. يوما ما كنت مثلك.. أحمل أحلامي داخلي واتصور أن الدنيا ستصبح ملكي..

يدير عينيه يبحث حوله عن بقايا زجاجة حملها معه بالأمس.. فارغة.. هكذا حياتي الآن.. لولا أنت وبدرية يامدحت لانعدم فيها كل معنى.. لعلكما لاتعرفان أني أعيش بكما ولكما.. أرى فيكما أحلامي التي كادت تموت.. ولا أملك لها حياة.. أراها وقد عادت لها الحياة فأمتلىء بالفرحة.. لاتسعني الدنيا نشوة.. لكن ماذا أفعل.. عجزت عن تحقيق حلمي لنفسي فكيف أحققه لك.. أيام الشباب ولت يامدحت ولم أشعر بها.. يوما بعد يوم انسحبت حياتي من بين أصابعي وكنت أظن أنني أقبض عليها.. فتحت كفي.. فوجدتها فارغة.. كنت أقبض على فراغ.. انشغلت عن نفسي.. لاتطلب مني أن أحكي لك لأن الذكريات غول يخيف.. نعم يخيفني.. حتى حبي سرقوه مني.. سرقوا

كل شئ يامدحت.. هل كنت تعلم هذا.. سرقوا شبابى وفنى ومستقبلى.. حياتى كلها ضاعت يامدحت فخفف قسوتك عنى وارحم شيخا محطماً يحـيا من أجلك ويرى فيك صورة شبابه.

[٦]

تحت الأضواء تقف بدرية.. تتحرك.. تنزف احساسها كل ليلة..

لحنى ينجح بصوتك ياابنتى لو سمعك الناس.. من تغنين أمامهم أنصاف أحياء لايحسون.. خسارة فيهم احساسك.. وفرى احساسك لغيرهم ياابنتى و لا تعذبينى..

[٧]

من فتحة الباب يطل الوجه الطيب الشاحب الحزين.. يرسم ابتسامة..

هل تأذن الحلوة فى الدخول؟

ترفع وجهها متهللة

تعرف الصوت

عم إبراهيم!.. تستأذن فى الدخول أيها العجوز الطيب.. تكتسى ملامحة بالجدية

اسمعينى ياابنتى.. تعرفين ما قاله مدحت.. لقد فكرت فى كلامه طويلا.. مستحيل أن يظل مدحت داخل الشرنقة.. أحس به تماما.. سيختنق ويموت.. هل ترضين له الموت؟

تهز رأسها تطرد فزعها..

سيسافر مدحت.. من أجل مستقبله وفنه لابد أن يسافر.. أدرك جيدا ما أقول فافهميني.. هل حدثتك قبلا عن حسن عاشور؟

حسن عاشور؟!

ومن لايعرف حسن عاشور ياعم إبراهيم..

حسن عاشور المع الاسماء في دنيا الموسقى والألحان.. حديث الناس في كل مكان.. نسمعه ونسمع عنه ونقرأ عنه ويطل علينا صباح مساء من كل جريدة أو مجلة وتليفزيون.. مالك أنت وحسن عاشور ياعم إبراهيم..

حسن عاشور ياابنتي رفيق مشوار طويل من العذاب وسهر الليالي.. رحلة عمر كاملة مع الأمل والألم والفرح والدموع حتى تفرقت بنا الطرق.. اختلفنا لاننا مختلفان..

ذهبت به طريقه إلى حيث هو الآن واضاعتني طريقي طويلا حتى صرت ما أنا فيه الآن.. لن أحكي لك المزيد. سيسافر مدحت لحسن عاشور بتوصية مني.. وسيسمعه عاشور لأنه صائغ ماهر يفهم في المعدن النادر ومدحت صوت من معدن نادر..

الفكرة مخيفة أيها الرجل الطيب.. أواثق أنت أن حسن عاشور يمكن أن؟؟..

عاشور ياابنتي يعرف ماذا يفعل.. هذا هو الفرق بيني وبينه.. ثم هو لايرد لي طلباً.. من أين هذه الثقة تسألين؟!.. لأنه لايملك أن يرد لي طلباً.. ربما لخاطر الزمالة القديمة.. أو ربما لأن به ضعفاً تجاهي.. قولي ماتشائين لكن صدقي أنني لم أكن أريد أن أخطو هذه الخطوة فمنذ افترقنا وأنا أحاول كل ساعة أن أنسى

أن فى هذه الدنيا شيئا اسمه حسن عاشور.. لن تتصورى مقدار المى أن الجأ إليه..

لكن لخاطر مدحت أفعل ماأفعل..

غدا يسافر مدحت إليه..

الآن أذهب إلى مدحت لأخبره.. لاتعبسى ياحلوة.. أنا أيضاً حزين مثلك لكن لابد أن نتمسك بالأمل.. نحن ياابنتى شريكان فى الالم لكن أملنا فى الغد أكبر من كل الأحزان فابتسمى..

[٨]

القاهرة.. زحمة الأضواء هنا فاجرة مجنونة تكاد تمسك بملابسك.. للأضواء هناك أطياف الألوان توشوش فى أذنيك.. ترسل اناملها تتحسس وجهك فتدغدغ عواطفك.. تدعوك ولاتدعوك..

يعرف جيدا ليل الاسكندرية.. يحفظ أضواءها.. رآها طفلا وصبيا وشابا.. مطالع الشوارع يعرفها.. كل زاوية.. كل حجر.. هناك النسمة تهب من البحر تطفئ صهد النار..

هنا العرق والصخب والجنون..

هنا حسن عاشور.. وغد يفتح ذراعيه على أتساعهما لك يامدحت فلا تتردد.

[٩]

منذ غادر اللوكاندة فى الصباح، حتى الرابعة بعد الظهر وهو لم يتناول أى طعام.. يحس بالتوتر.. كلما تصور لقاءه بحسن عاشور سرت فى أوصاله رعدة ماذا سيقول لهذا العملاق.. وكيف سيستقبله هو؟.

يارب ماذا بعد هذه اللحظة ؟..

على سور الكورنيش أمام التليفزيون جلس.. من فوق رأسه تشابكت أغصان الشجرة الضخمة والقت ظلها أمامه على الرصيف.. نظر فى ساعته.. لم يعد يحس مرور الوقت.. نهض يعبر الشارع إلى المبنى يسأل عنه للمرة الأخيرة.. لم يصل حتى الآن.. عنوان منزله.. رقم تليفونه.. لا أحد يرد..

قرر العودة إلى اللوكاندة ليستريح ويتيح لنفسه فرصة أفضل للتفكير..

تمدد فوق الفراش يقلب صفحات الجريدة. هاهى صورته وكلام يقوله.. سأل نفسه.. هل يعرفه إبراهيم كوته حقا.. بدأ الشك يتسلل إلى نفسه.. لماذا لا تكون المسألة كلها خدعة كبيرة هو ضحيتها.. نفى الخاطر بسرعة.. إبراهيم كوته انسان طيب لايفعل به هذا.. ولماذا القلق؟ غدا يلتقى به ويتضح كل شئ.. غدا ينفتح الباب أمامه.. وستعرف الدنيا من هو مدحت فريد.. طوى الجريدة.. وانزلق يريح رأسه فوق الوسادة.

[١٠]

هو الاستاذ حسن عاشور.. بعينه.. ومن غيره.. صدره يجيش بشتى الانفعالات.. دق قلبه فى عنف وتسارعت أنفاسه.. لاتدع الفرصة تفلت منك.. دس كفه فى جيبه يطمئن على وجود الرسالة معه واسرع نحوه..

كان حسن عاشور يصعد درجات المبنى فى تؤدة.. حوله بعض تلامذته والعاملين معه.. طويلا.. فخما.. فى عينيه بعض القسوة.. ثابت الخطوات.. قليل الكلام.

استاذ حسن..

التفت إليه.. مدّ يداً مرتعشة بالرسالة وعلى فمه ابتسامة تجاهد لتبقى.. تناول منه الرسالة.. فضها يبطء.. جرت عيناه عليها ثم طواها واعادها إليه..

تعال إلى غدا فى منزلى.. العنوان؟.. فيلا عاشور بالمعادى.. أشار له.. بعد التاسعة.. لاتنس.. ومضى داخلا إلى المبنى وسط ضجيج الملتفين حوله..

وقف وحيدا يفكر.. الرسالة فى يده..

هدأ فجاة كل شئ حوله.

استدار يهبط الدرجات القليلة يستعد للقاء الغد.

[١١]

الطريق إلى الفيلا طويل وموحش..

يسير داخل نفق من الأشجار تبدو على الجانبين كطابورين من الجنود يحرسون الطريق.. الظلام يلفه.. والحى الهادئ صامت لايقطع صمته سوى نباح بعيد يحمله الهواء إليه.. ياقة القميص الجديد جافة تحك رقبته.. عند اقرب مصباح ينحنى ليتأكذ من نظافة حذائه بعد هذا السير الطويل. يجب ألا يبدو عليه التعب رغم ليلة أمضاها بلا نوم من رهبة اللقاء.. سيسمعه حسن عاشور.. سيغنى كل ماحفظه له إبراهيم كوتة..

أى نوع من العلاقة يمكن أن يكون بين كوتة وعاشور؟!

سأل نفسه..

وماذا يهمه؟!

دعاه الرجل للقائه وها هو قبل الموعد أمام بابه ولن تمر دقائق حتى تنفتح

أمامه أبواب ذلك العالم المسحور.. سيعرف كل شئ فى حينه.. لكن يجب أن يقتنع بك أولا.. ستهزه.. ستجعله يلتفت إليك مشدوها.. سينصت لك وأنت تغنى.. ستسمع الدنيا.. وسيسكت كل صوت الا صوتك يامدحت فتقدم.. تقدم واضغط الجرس..

[١٢]

تقلبت فى فراشها.. لاتستطيع النوم.. اعتدلت جالسة.. يومان ومدحت بعيد.. الانتظار صعب..

هل تسافر إليه؟..

لكن أين ستسأل عنه؟.. حسن عاشور..؟! وأين لها حسن عاشور؟.

ماذا فعلت ياكوتة بمدحت؟..

هذه رغبته يابدرية.. أتذكرين.. أراد فرصة فساعدته عليها.. سيصبح نجما لاشك فى هذا.. أنا أعلم هذا ومتأكد منه.. أحلمى مثلى يابدرية.. صور مدحت تملأ أفيشات الشوارع.. سترينة فى كل مكان.. يردد الناس اسمه.. ستسمعين صوته من كل راديو.. وتشاهدينه على كل شاشة تليفزيون.. صوته سيملأ الدنيا.. ستفتح له كل الأبواب.. وسنصفق له أنا وأنت ومعنا كل الناس..

وسيعرفنى ياعم إبراهيم بلا شك.. سأناديه.. وسيسمع صوتى.. سيلقانى فاتحاً ذراعية وسأرتمى بينهما ويضمنى.. فاستكين فى حضنه.. سأقول للدنيا هذا هو مدحت حبى وحبيبى... نعم ياعم إبراهيم.. سينجح مدحت.. وتنجح أنت.. وأنجح أنا.. سنودع الفقر والذل هنا.. سنسير مع مدحت مشواره.. سنكون معه.. إلى جواره لانفارقه.. مدحت هو قبضتك التى ستحطم حائط

العجز ياكوتة.. وسيمسح عنك هوان السنين الطوال.. لكن حسن عاشور..!!

وينساب خيط من المرارة إلى قلب إبراهيم كوتة فيصمت.. لكن حلم بدرية لايتوقف.. تحلم.. بينما يجلس كوتة معتمدا بوجهه على كفيه غارقا فى حزنه الصامت.. وصوت بدرية يشقشق حوله سعيدا..

[١٣]

نغمات البيانو تتناهى إلى سمعه واضحة تقطع سكون الانتظار.. تتلون من مقام إلى مقام فى دربة حاذقة.. الاصابع العازفة لابد ماهرة.. تتسارع الأنغام وتبطئ.. تعلو وتنخفض.. يتابع اللحن باهتمام.. يدير عينيه فيما حوله.. كل شئ يشى بالثراء الباذخ.. على الحوائط وتحت قدميه.. أمامه وخلفه وفى كل مكان.. كل هذا لحسن عاشور؟.

طافت بذهنه صورة إبراهيم كوتة يحتضن عوده فى حنان هناك فى غرفتة فوق السطوح.. وكل ماحوله يضرب فى الفوضى.. لكنها فوضى يحبها..

أنت اذن تعرف حسن عاشور ياعم كوتة!!

تعرفه كل هذه السنين وتخفيه عنا أيها العجوز..

توقف صوت العزف فانتبه.. أمامه يقف حسن عاشور فارع الطول.. واضح الملامح.. السيجار فى يده.. بعض الشيب يتماوج فى شعره فيضفى عليه كثيرا من العظمة..

نهض واقفا.. أشار له.. اجلس.. جلس.. حسن عاشور يجلس أمامه واضعا ساقا فوق ساق. يهزها..

يسأله والسيجار فى فمه.. منذ متى وأنت تعرف إبراهيم كوتة..

للاسم فى فم حسن عاشور طعم مختلف..

أحس أنه هنا ليس كوتة الذى يعرفه..

أعرفه منذ بدأت أحبو فى الفن..

تعلمت منه؟..

عملنى كل مايعلم..

يضحك..

اذن تعلمت الكثير..

ينهض..

كوتة يعلم الكثير.. الكثير جدا..

يضحك..

ضحكته واثقة.. لكنها أبدا.. ليست ودودة..

يعطيه ظهره ويفتح خزانة فى الحائط يصب لنفسه شرابا..

يستجمع نفسه.. ارسلنى إليك لتساعدنى..

كأس..؟

يهز رأسه ويستأنف كلامه.. يرجوك أن تسمعنى.. يقول..

لايدعه عاشور يتم كلامه.. حسن جدا.. سأسمعك.. يمضى خلفه..

يلتفت إليه.. ماذا ستسمعنى؟..

هل تحب لحناً لإبراهيم كوتة؟..

لحن قديم له

ماهو؟..

أظن أننى أعرفه.. يعتدل أمام البيانو ويبدأ يعزف اللحن.. يعزفة أحسن من كوتة نفسه..

تتسع عيناه دهشة..

يشير له عاشور ليبدأ..

يخرج صوته مرتعشا أول الأمر ثم ينطلق.. ينسى نفسه عندما يغنى.. لايرى حسن عاشور.. يغيب المكان عن وعيه.. يسقط فى اللاوجود.. لايرى أمامه الا إبراهيم كوتة على العود يبتسم له مشجعا.. يلف صوته مع اللحن صاعدا هابطا.. أصابع حسن عاشور تجرى على البيانو.. يختم اغنيته.. حبات العرق تبلل وجهه ورقبته.. حسن عاشور مازالت أصابعه على البيانو.. مرت الثوانى عمرا طويلا..

استدار إليه.. برافو.. هادئة بلا انفعال.

صوتك يعجبنى.. الأهم أنك تحس بما تغنى..

قال بحماس برئ

تعلمت هذا من إبراهيم كوتة..

قاطعة فى انفعال

انس الآن إبراهيم كوتة.. ماذا كنت أقول.. آه.. معى ستتعلم شيئا جديداً.. شئ لايعرفه إبراهيم كوتة.. لا يعرفه سوى حسن عاشور وحده.. هل تفهمنى ؟..

[١٤]

ياما أجمل الغد.. بدأت ملامحه تتضح مشرق الطلعة مفعماً بالأفراح.. الأضواء والالوان عامرة بالبهجة.. طنين الهمس يدور حوله.. الأكف تصفق.. الموسيقى.. يستمع.. يلتفت.. يجيب.. الهمس يكفى.. الاشارة تغنى عن الكلام.. أين أنت ياعم إبراهيم لتحيا معى هذا الحلم الرائع.. معذرة.. يومى مشغول بالمواعيد.. لكل شئ نظام.. الأكل.. الملبس.. حتى المغنى.. تصور! تدريبات بالليل والنهار..

كلامى أصبح مختلفاً.. أحيانا استغرب نفسى.. انظر إليها فى المرآة

نعم.. الوجه أعرفه.. لكن هناك شئ مختلف.. بالتحديد لا اعرف ماهو.. أدور حول نفسى نصف دورة.. رائع.. هذا الرجل كما قلت أنت تماماً جواهرجى بارع يعرف كيف يصوغ المعدن بين اصابعة الفنانة يصنع منه حلية نادرة.. تحفة.. أحس بنفسى خفيفا.. لكنى لا أخفى عنك أنت.. بعض الخوف يساورنى.. ليس خوفا بالضبط لكنه القلق..

عم إبراهيم.. إسمعنى.. أرجوك.. والآن.. قل لى كيف تعرف حسن عاشور إلى هذه الدرجة ؟!..

عم إبراهيم.. أنا مدحت فريد.. هل تذكرنى ؟! بدرية !! نعم بدرية.. نعم ماهى أخبارها.. هل تسلم لى عليها.. سامحنى ياعم كوتة.. وقتى ضيق.. اتركك الآن.. سأحاول أن أراك.. قريبا.. قريبا جدا ياعم إبراهيم.. والآن.. باى!

[١٥]

زرقة سماء الغروب يضرب فيها الشفق فتتلون السحابات السابحة فى الفضاء بالأصفر والأحمر..

تسير إلى جواره.. تكاد تقفز فى مشيتها.. تسبقه أحيانا خطوة أو خطوتين.. تستدير نحوه.. قل كل شئ.. أرجوك لاتنس حرفا.. لاتخف عنى حتى الحركة.. لون بذلته.. قميصه.. ربطة العنق.. مالونها؟.. حتى الحذاء.. عيناه الذكيتان تطل منهما الفرحة.. أراهما.. وصوته الساحر.. أسمعه.. تصور أيها العجوز الطيب أنه يأتى من مصر إلى هنا كى يسأل عنى. ماذا قال.. أحلك كل شئ ياعم إبراهيم لاتصمت هكذا.. هاأنذا أسكت فتكلم أنت

اللهفة تلمع فى دموع عينيها..

تكلم ياعم إبراهيم.. تكلم!

[١٦]

فى فيلا حسن عاشور كانت أول مرة يراها .

امتلأت الفيلا بالمدعوين..

الليلة اقدمك لنجوم الحقل الفنى كله.. ستتعرف عليهم ويتعرفون عليك فلا تخذلنى.. ستغنى لهم وسيستمعون إليك.. كلهم فى أعلا المراكز وسيهتمون بك.. هم أصدقائى فلا تخش شيئا..

أحيانا يسأل مدحت نفسه.. لماذا يرى حسن عاشور الكل عند أقدمه.. من أين تأتيه كل هذه الثقة.. فى الحفل قدمه لها.. وقدمها له.. مدام نشأت.. رحبت به.. زاد اهتمامها عندما عرفت منه علاقته بكوتة..

أنت أيضا تعرفين كوتة؟

يلون الحزن عينيها..

فى ختام الحفل تهنئه.. كنت رائعا.. هذه آثار إبراهيم كوتة ولاشك.. يعرف هذا جيدا.. يقول مجاملا.. لن أنسى فضل استاذى حسن عاشور.. تربت فى رفق على كتفه.. يوما ما ستعرف من هو حسن عاشور.. وتستدير لتنصرف وتترك خلفها سؤالا بلا جواب..

[١٧]

لم تبق الا دعوة كوتة..

اكتمل كل شئ.. صورته تغطى الحوائط.. يرى اسمه مكتوبا على لوحات الاعلانات.. عاشور بما يملكه من اتصالات استطاع اشراكه فى هذا الحفل..

ستسمع الدنيا مدحت فريد وتعرف من هو..

ها هو حلمك ياعم إبراهيم يكاد يتحقق.. أذكر كل كلمة قلتها لى ونحن نسير فى حوارى الحضرة.. صوتك مازال فى أذنى.. كنت واثقا إلى هذه الدرجة؟.. أى رجل أنت ياكوتة.. تعال الآن لتشهد نجاحك.. تراه بعينيك.. عاشور رتب كل شئ.. رجل يحسب لكل شئ حسابه.. الحياة نفسها عنده عملية حسابية.. لم يكن ممكنا شئ من هذا بغيره ياعم إبراهيم.. أنت وهو صنعتما نجاحى.. غدا تجدنى أمامك.. أصطحبك معى.. نعم معنا بدرية رأفت ثالثتنا.. الم نتفق على هذا.. على السطوح أمام غرفتك كنت تحلم بيوم كهذا وكنا نحلم معك.. لم يعد حلما ياعم إبراهيم.. هو الآن حقيقة.. فافتح ذراعيك للدنيا يارجل.

لايصدق نفسه.. يظن المسألة دعابة ثقيلة ولايمكن أن تكون أكثر من هذا.. ثورة حسن عاشور المباغته لاتفسير لها الا أنها شطحة فنان.. لايفهم هذا الرجل..

لاأحب أن يذكر اسم كوتة امامي.. وفي بيتي!!

لأى سبب هذه الثورة على كوتة.. كل هذا الغل منه يبدو بلا تفسير.. لامعنى له.. لماذا يمنعه عاشور من السفر إلى كوتة.. لايفهم.. لماذا كل هذه الكراهية للرجل الطيب.. لايفهم.. لماذا اذن كان اهتمامك بى كل هذا الاهتمام.. كان بوسعك طردى من اليوم الأول.. من اللحظة الأولى.. أنا لا أفهمك يا استاذ حسن.

لايستطيع حسن عاشور أن يتصور أن يقف أمامه إبراهيم كوتة مرة أخرى.. كان يظن أنه نسى هذه الأيام.. لماذا تذكرنى به.. لاأفهم اصرارك على حضوره.. ماذا فعل.. ماذا قدم لك.. أنا الذى صنعتك.. لولا فشله وعجزه لما كنت عندى.. لما فكر فى أن يرسلك اليّ..

ماذا يملك كوتة أن يفعل لك.. لو كان بيده شئ لفعله لنفسه.. يكفيه أن يسمع عن نجاحك لانه نجاح حسن عاشور وفشله هو.. المسألة هكذا.. نجاح حسن عاشور يعنى فشل إبراهيم كوتة.. لاتطلب منى مالا أستطيع.. كوتة ليس له وجود هنا.. هل فهمت؟!.

كلام حسن عاشور يهوى كالصفعات على وجه مدحت.. ويطعنه كالمدية.. هل يعرف إبراهيم كوتة مقدار الكراهية التى يحملها له عاشور.. لو كان يعلم فلماذا يرسله إليه؟!..

يرفض مدحت أن يستقبل لحظة النجاح وحده بعيداً عن الرجل الذى أعطاه كل ماعنده..

سيواجه حسن عاشور بأنه لن يغنى بدون كوتة وليحدث مايحدث..

لست سلاحك أنا ولن أكون ضد كوتة أتفهم؟ نعم إلى هذا الحد.. لامعنى لمستقبل من صنع مرارتك وكراهيتك.. كنا نحلم مع كوتة بصباح يشرق علينا مملوءا بالافراح والبهجة.. عالمك أنت كريه.. بارد لايعرف دفء العواطف..

لايفهم حسن عاشور كيف يفكر هؤلاء الناس. كوتة الحامل المستسلم تذوب فيه حباً نحبية الحلوانى زهرة ليالى الأسكندرية وعطرها الفواح وتنكره هو.. هو حسن عاشور الذى لاتخفى عليه خافية.. رجل يعرف كيف يأتى بالغد قبل أن يولد.. الدنيا فى يده لعبة يلعبها.. قدم لها قلبه.. عرق الليالى.. فرش الأرض أمامها بالاحلام.. كوتة رجل بلا غد.. صدقينى عمرنا عشناه معا.. لن تجنى معه الا الحسرة والندم.. ستضيعين شبابك إلى جوار فشله.

هذا رجل شاخت روحه وهو فى ريق صباه.. حياته مشوار مع الأحزان.. مالنا وإياه.. امامنا الحياة عامرة بالمتعة فضعى يدك فى يدى نغترف منها..

رغم كل مافعله يحس فى قرارة نفسه ان نجيه ماتزال تحب كوتة.. يرى ذلك فى تصرفاتها.. يعرفها خيراً مما تعرف نفسها.. ثم يأتى مدحت اليوم يريد أن يعيد كوتة للحياة بعد أن أماتة هو فى قلبه.

أى سر فيك ياكوتة يحملهم على التمسك بك.. كيف.. وأنت لاتملك ما أملك.. أيكون السر فى ضعفك.. هل يحمل الضعف فى داخله قوة

لانحسها؟!.. لاأفهم.. هم ولا شك مجانين يحلمون. ستصدمهم الحقيقة يوما فيعود لهم عقلهم.

[١٩]

مرت أيام السعادة سريعة.. كل خطوة خطوناها معاً كانت أملاً.. كل بقعة نور.. كل كلمة كانت نعيما لم أحفظه.. هل تسألنى عن إبراهيم كوتة؟ اسأله هو عن نجية الحلوانى.. أعلم رأيه فيها.. وهى تستحقه.. الم يحدثك يوما عنى؟.. أنا نجية نعم..

مدام نشأت بعد ذلك.. سأحدثك عن كوتة مادمت تسألنى عنه.. كان إبراهيم الأرض بعد ليل الغرق.. كان ظلا وارفاً احتمينا تحته.. هل تسأل الشجرة على أى أرض تلقى ظلها؟.. هكذا كان إبراهيم.. أغوانى لحظة ضوء النهار فخرجت من ظله إليه.. لم يكن نورا.. كان ناراً أشعلها عاشور واحترقت أنابها..

تريد أن تسمع المزيد يامدحت؟.. اسأل كوتة عن نجية.. وسترى انسانا آخر غير كوتة الذى تعرفه!

[٢٠]

انتهى كل شئ.. ضاع حلمك يامدحت وتحطمت الدنيا تحت أقدامك..

ستسمع من كوتة وسيسمع لك فلا تتأخر لحظة!

[٢١]

مدحت..

مدحت.. هل تستسلم بهذه السرعة؟.. أى نوع من الرجال أنت؟.. حرام

ماتفعله بى أنت وكوتة.. أنت أيضا صورة منه.. لو لم يستسلم كوتة من أول لحظة.. من أول لحظة؟! أظنه ولد مستسلما لقدره.. لو لم يستسلم كوتة.. لتغيرت اشياء كثيرة.. لما كنت أنا هنا.. لما كنت صاحبة كبارية «ليالى الأنس».. أنا نجية حب كوتة وسره وأمله ومستقبله وخرابه ونهايته.. لماذا ؟.. لأنه استسلم يامدحت.. انهزم !.. كسرناه أنا وعاشور.

كنت صغيرة فجرفنى تيار عاشور.. عاشور قوى.. يعرف متى يقفز من السفينة الغارقة.. قفز ونجا بنفسه وتركنى.. باعنى يامدحت لأول مشتر.. كان غنيا.. طيبا.. منه ؟!.. نعم منه أنجبت حنان وعاقبنى القدر فيها.. حكاية أنت فى غنى عنها.. المهم.. لاتستسلم... لاتكن كوتة آخر.. أتوسل إليك.. الحفل ؟.. أنا سأساعدك.. هل تمانع..؟

اسمح لى أن اساعدك فأحاول صنع شئ لأجل كوتة.. أرد له بعض ظله الذى احتميت به دهرا من صباى الاسكندرانى.. لاتستسلم يامدحت وقاوم.. أنا معك يامدحت.. ومعنا الله.. وانتظر ياعاشور وسترى.. هذا هو مدحت تلميذ كوتة.. كوتة.. أتسمع ياعاشور؟.. كوتة!

[٢٢]

ابداً لم تكن تتصور أنها تحمل كل هذا الحب للمكان..

قلبها يخفق بشدة.. نفس المكان.. كل شئ كما تركته..

كم مضى من السنين يانجية وكم تبقى؟.. هل هى فى حلم؟..

الوجوه تعرفها.. كل شبر من الأرض هنا يعرفها وتعرفه.. كم صباحاً وكم شمس نهار يانجية فتحت عينيك تعانقان الأمل.. كانت الروح ماتزال خضراء..

والشباب.. الشباب يانجية طاقة بلا حدود..أهدرتها.. ضاعت منك فى رحلة العمر وها أنت تعودين..

أنزلت زجاج السيارة وأطلت برأسها تملأ صدرها بالهواء.. تنبهت على باب السيارة يفتح لها.. مدت قدمها تلمس الأرض.. وخطت خارجة.

[٢٣]

غدا تعود مدام نشأت من الأسكندرية.. سيقضى هذه الليلة فى ذلك البيت الواسع يرعى حنان كما طلبت نجية

أمضى بعض الليل حائراً لايدرى ماذا يفعل وسط قطع الأثاث المتناثرة حوله فى كل مكان..

حنان فى الشرفة فوق مقعدها ذى العجلات تقرأ حينا فى كتاب معها.. وتتطلع كثيرا إلى الافق الواسع الممتد أمامها.. صامتة كالنيل أمامها.. يجرى هو ..وهى لاتتحرك.. قرر ألا يتركها.. مضى نحوها.. نقر فوق زجاج الشرفة.. ادارت نصف وجهها نحوه.. أزاح الباب الزجاجى ودخل.. سحب مقعدا وجلس إلى جوارها..

[٢٤]

العذاب بئر..

لا تعرف ماذا بداخلها حتى تسقط فيها..

دوامة اذا اقتربت منها شدتك إليها لتدفعك إلى الاعماق.. أبدا لم تعرف العذاب قبل اليوم.. حتى يوم أجلسوها فوق هذا المقعد لم تعرف العذاب.. عرفت الألم.. المقاومة حتى اليأس ثم الاستسلام..

العذاب الآن كلمة أصبح لها معنى.. عرفته وها هى تعيشه.. مدحت إلى جوارها صامت لايجد كلاما يقوله.. أحلامها تسافر معه.. تغمض عينيها فوق صدره.. يحتويها بذراعيه.. تسمع أنفاسه.. دقات قلبه.. عيناه الواد عتان يحملانها بعيدا.. يجوبان بها العالم.. هذا قلبى أفتحه أمامك.. اطلب أغلى ماعندى أقدمه لك يامدحت.. سافر باحلامى.. خذها تطوف الدنيا معك.. نرقص معا تحت أشجار النخيل فى ضوء القمر فى اكابولكو.. يسبح بنا جندول فى فينيسيا.. نركض معا حفاة الأقدام على شاطئ الريفييرا.. تسير بى.. ذراعك تحتضننى فى الهايد بارك.. تدور بى فى رقصة مجنونة على ايقاعات الكاريوكا..

مدحت... هذا هو عذابى.. هل تحسه؟

رفعت أصابعها المرتعشة تمسح دموعها.. انكفأت نظراتها إلى الأرض.

قال مدحت مذعورا.. حنان.. أنت تبكين..؟!

قالت دون أن تنظر إليه.. مدحت.. احملنى إلى فراشي.. أرجوك..

[٢٥]

دفعت بيدها الباب الموارب فوجدته أمامها..

هو كوتة لم يتغير..

أضافت الأيام إلى ملامحه بعض الشعر الأبيض وزادت فى حزن العينين..

أدارت عينيها في الغرفة.. كما هي.. نفس الفوضى التى أحبتها وكانت جزءا من شخصيته..

من زجاج النافذه يتسلل خيط من النور يسقط على أرض الغرفة ويمتد حتى منتصفها..

مازالت تذكر وقفاتها خلف زجاجها ترقب مراكب الصيادين.. وتميل بجذعها تطل برأسها خارجها فتشاهد جزءا من شريط الترام والميدان..

أمامها يمتد البحر حينا كالحصير هادئا كنفسها اليوم.. وأحيانا يركبه الغضب فلا تقوى على اطالة النظر إليه.

من مقعده نهض إبراهيم كوتة وقد أخذته المفاجأة.. ردد الاسم بين شفتيه دون صوت أكثر من مرة..

تقدمت نحوه خطوة ثم توقفت..

مدت يدها.. إبراهيم.. نعم أنا نجية يا إبراهيم قلبك ونِنّى العين اذا شئت.. وانت كما انت ياإبراهيم.. ستبقى الظل الوارف الذى نلجأ إليه كلما اشتد علينا الهجير.. فهل يمتد ظلك نحوى.. يغطينى.. يحتوينى.. يحمينى.. آه من حرارة أنفاسك وفيضان حبك آه..

احتاج إليك ياإبراهيم وكلى ندم..

لا أستطيع أن أصف لك فأنت تعيشنى لأننى منك.. أنت الكل فلا ترفض جزءا منك يعود إليك.

أتيت أحدثك عن مدحت.. نعم.. عندى بعد أن لفظه عاشور.. كنت تعلم ياكوتة أن عاشور لن يسير معه مشواره..

عاشور لايصنع النجاح ياكوتة وأنت تعلم.. عاشور يخطف.. يريد أن يثبت لنفسه أولا قبل أن يثبت لنا أنه النجاح ونحن الفشل.. هو المقدرة وأنت العجز.. نجاح مدحت على يديه معناه فشلك ونجاحة هو..

نجاح مدحت لن يتحقق بدونك ياكوتة.. أنت أقوى من عاشور.. نعم.. اليوم أقول هذا بعد تجربة السنين.. اليوم أدركت أن عمرى لم يضع سدى.. أنت أغنى منه..

ستقف خلف مدحت وأنا معك ياإبراهيم نكمل مشواراً بدأناه.. مدحت كان يمكن أن يكون ابننا يا أبراهيم..

لست أحلم.. بل سأضع كل ما أملك رهن اشارتك لتحقق به ماتريد.

اليوم جاءت فرصتك لتسمع عاشور ردك.. فماذا قلت ياكوتة ؟!.

[٢٦]

ماما.. ماما.. ضميني إليك.. امسحي بكفك الحنون فوق شعرى.. دعينى أخبئ وجهى فى صدرك وأبكى..

ماما احتاج إليك.. أجيبينى.. هل تحسين عذاب العصفور حبيس القفص.. عيناه تدوران فى الفضاء حوله.. تحلقان مع رفاقه.. تضربان باجنحتهما فى سعادة.. ترفرفان فى نعمة الانطلاق وهو حبيس فى قفصه لايملك الاطمو ح النظرة وذل الاخفاق عن التحقق..

ماما.. هل تحسين عذابه.. أرجوك.. أجلى دموعك واسمعينى.. هل تحسين عذابه اذا انفتح له باب سجنه لينطلق.. ليعيش فرحة الطيران.. يشقشق سعيدا بقدرته على التحليق .. ثم.. نعم.. يخشى الخروج من سجنه.. أتعلمين لماذا.. لأنه ياأمى عصفور فقد جناحيه عندما أحس أن باب سجنه قد فتح أمامه ليخرج وحانت لحظة الطيران بحث عن جناحيه فلم يجدهما

أى عذاب ياأمى..

أين هى اليد التى تمتد تخرج العصفور من قفصه.. تضمه بين أصابعها فى رفق.. تمسح على ريشه الأخضر.. ترعاه حتى ينبت الجناحان.. وعندما يقويان على الطيران تطلقه يسبح فى الهواء مغردا..!

ماما.. كنت تسألينى متى اوافق على الجراحة التى نصحك الاطباء بها.. اوافق الآن وباسرع ماتستطيعين.. لكن.. لأعود فاجده فى أنتظارى.. أجرى إليه.. يستقبلنى فـارداً

ذراعيه.. ارتمى بينهما فى حضنه.. لا أعرف أن كنت سأضحك أم سأبكى.. لايهم.. المهم أن ينتظرنى يا أمى.. أرجوك.

[٢٧]

أمواج البحر لاتكف عن محاولة تسلق رمال الشاطئ دون جدوى.. تلمع تحت ضوء القمر الشاحب.. على الرمال تسير بدرية وحدها الآن وقد استيقظت فى صدرها الهواجس..

منذ أن انقطعت تليفونات مدحت والقلق يأكلها.. ينهش قلبها فتحس بالخوف يتسلل إلى عظامها.. خوف غامض يبعث فى روحها وحشة..

على احدى الصخور جلست تفكر فى معنى زيارة نجيه لابراهيم كوتة..

تحاول تفسير الشرود الذى طرأ على الرجل.. لم تفهم منه شيئا.. تكلم قليلا لكنه لم يرو ظمأها لأن تعرف.. لابد أن تعرف منه كل شئ.. لن تسكت.. لن تدعهم يسلبوها حياتها وهى مستسلمة لاتقاوم.. ستسافر وحدها إلى مدحت حتى لو رفض كوتة السفر.. لن تنتظر.. لن تقف متفرجة وحياتها تخرج من صدرها.. لن تسمح بهذا أبداً.. أبداً.

[٢٨]

اريد أن أعرف من هى نجية بالضبط ياعم إبراهيم..ماذا تريد منك؟.. أين مدحت؟.. ما الذى يحدث.. اكاد أجن.. أفهمنى حقيقة مايجرى.. حرام أن تتركونى هكذا لهواجسى.. دموعها تخنقها.. سأذهب لها ياعم إبراهيم.. لابد أن أذهب لها.. أريد أن أرى مدحت وأعرف منه لماذا لم أعد أراه.. حياتى تنزف لحظة بلحظة وأنا هنا امضغ القلق.. يقتلنى الانتظار.. لاأطيق الصبر ياعم إبراهيم.. لم اعد احتمل.. سأسافر ياعم إبراهيم.. سأسافر.

[٢٩]

شئ ما فى عينيها.. لا.. بل فى نظرة عينيها لفت انتباهها..

أحست انها تكاد تسمع دقات قلبها بينما أصبعها على الجرس..

تصورت كل شئ.. أن يفتح الباب فترى أمامها نجية.. واقفة شامخة متحدية.. أنفها في السماء.. نظرات عينيها الفاجرة تطردانها.. بره.. لاأحد هنا يريدك..

تصورتها عينان حنونتان تحاولان أن تتذكراها.. نعم أنت بدرية.. سمعت عنك من كوتة.. تفضلى ياابنتى.. بيتك.. أهلا.. أدخلى..

تصورتها وجها جامدا بلا أى انفعال يسألها نعم؟ من تريدين؟ مدحت؟ ثم تنادى.. مدحت.. هناك من يسأل عنك.. وتعطيها ظهرها وتنصرف.

انفتح الباب.. أطل وجه مرح لفتاة لاتتجاوز العشرين سألتها عيناها من تكون.. ثم تراجعت تفسح لها لتدخل.. تقدمت بدرية خطوتان وتوقفت.. وجدت نفسها أمام حنان.. ولاحظت أن فى عينيها شئ مايشدها إليها.. عصرت ذهنها تحاول أن تسمى هذا الشئ.. لعله رجاء صامت.. توسل.. ضراعة.. أن تعود وتتركها.. تترك لها مدحت..

ربما كان فزعا من أن تهدم لها حلما عاشت تبنيه لحظة بلحظة وتوشيه بكل مايجعل منه جنة تطوف بروحها فيها تستنشق نسمات السعادة..

جاءها صوتها ضعيفا يستفسر: تريدين مدحت؟.. لحظة واحدة.. مدحت.. مدحت.. واشارت لها.. تفضلى..

أحست بدرية أنها لاتكرهها لكنها فقط تريد مدحت.. فإذا كانت هى أيضا تريده فعليه هو أن يختار

لكن شيئا ما داخلها راح يوسوس لها أن معركتها لن تكون سهلة..

[٣٠]

هذه المجنونة.. كيف يشرح لها.. يحبها بكل تأكيد ويعلم أن حبها له أمر لم يعد مجالا لأى سؤال الآن.. هو حقيقة ترفض أى شك.

«بدرية.. ومدحت.. الشئ لزوم الشئ»

ويضحك كوتة سعيدا.. يصفق بيديه ويهز رأسه.. ثم يمسح عينيه..

حبهما قدر.. مدحت يعلم هذا.. وهى أيضا تعلمه فلماذا الشك يابدرية..

سأشرح لك.. لن أطيل عذابك.. هل تشكين فىّ.. هل تشكين فى مدحت حبيبك؟!.

[٣١]

بدرية!!..

فيها من البحر الشئ الكثير..

بل هى البحر ذاته..

عندما تغضب يرى فى نظرة عينيها نوّة الفيضة.. يعرفها جيدا ولايخطئها.. ومن أدرى منه ببدرية.. تتجمع رياح الحسوم فى فمها اذا تكلمت..لكن لها قلب طفلة عندما تصفو.. ويهدأ كل شئ.. تسطع الشمس فى سمائها وينفتح الأفق..

ألسطة يابدارة؟!

ألسطة يادوحة..

ويرفرف طائر الحب بينهما من جديد..

النهر يجرى هادئا.. يرتعش لهبات النسيم.. تهتز اوراق الشجر إلى جوارها ويطوف حولها أريج الزهور.

فى ذلك الكازينو على النيل.. وفى أحد أركانه البعيدة جلسا متواجهين.. فى عينيها تجمع الانتظار متحفزا لسماعه..

عليه الآن أن يفسر لها كل هذا الغموض.. لماذا غيابه عن الاسكندرية.. لماذا اقامته عند مدام نشأت.. و.. و.. ولم تتذكر اسمها..

حنان.. أكمل لها..

نعم حنان ماعلاقته بها.. ماذا يخبئ الغد لنا يامدحت.. ماذا تخفى أنت.. احك كل شئ.. لاتخف عن بدرية سراً.. تكلم وتأكد أننى سأفهمك.. لاتحمل الهم وحدك.. أستطيع حمله معك.. تكلم يامدحت.. هذه بدرية أمامك ومن غيرها سيفهمك؟!

مدّ مدحت يده تمسك يدها.. هذه الأصابع يعرفها جيدا.. رفع كفها الصغيرة أمام عينيه.. ارتعشت رموشها.. لمع فى عينيها بريق الفرحة.. شئ فى داخلها يؤكد لها حب مدحت. لاتدرى من أين لها كل هذه الثقة به.. تحتاج منه تفسيراً لتفهم فقط.. ستصدق كل مايقوله

أه لو يعلم كم تحبه؟!

[٣٢]

لم تكن بدرية تعلم أن حنان مصابة بالشلل.. حبها لمدحت اذن هو تمسك الغريق بمنقذه.. تعلق اليأس بالأمل.. هو الفجر الذى تنتظره بعد الليل الطويل.. عندما تبزغ شمسه ترى الدينا.. ومن يدرى!!

أدركت بدرية الآن معنى نظرة الضراعة فى عينى حنان.. وأحست أنها لاتكرهها.. لاتخشاها أيضا.. لكنها لاتطمئن لمدام نشأت.

مدحت فى عينيه الصدق.. وهى لاتكذب حكايته.. اذن فالأمر كله مجرد اتفاق بين مدام نشأت ومدحت على تمثيل دور من أجل مستقبل حنان.. هكذا قال لها مدحت.. توسلت الأم إليه أن يقبل الدور من أجل أن تنهى عذاب وحيدتها.. وفى المقابل ستضع كل ماتملك من امكانيات تحت تصرفه.. ستضع كل خبرتها وثروتها لتقدمه للناس مطربا ناجحاً.. هكذا حكى لها مدحت وهى تصدقه.. لكن ماذنب المسكينة حنان.. ماذنبها- فكرت بدرية- يلقون لها بحبال الأمل لينتشلوها من بئر الألم الذى سقطت فيه.. ليخرجوها إلى أرض الحقيقة الصلبة.. تسقط على صخورها.. تتذوق ملحها وتواجه مرارة الواقع..

لاتفهم بدرية كيف يفكرون.. ولا يعينها هذا.. كل ماتحسب حسابه وستقاتل من أجله ألا يحاولوا تحطيم حلمها أو حتى مجرد الاقتراب منه!

[٣٣]

الدنيا كلها هنا عند قدميه..

أغمضت عينيها.. حلمت به فى يقظتها ينحنى.. يلتقطها.. يضعها بين يديها..

رفت ابتسامة متفائلة على شفتيها.. لاتريد أن تصحو من حلمها..

هزت رأسها فى نشوة ومالت تنام على كفه الممسكة بمسند المقعد عبر صالات المطار.. لاتهمها نظرات الناس من حولها.. لاتحس بهم.. وماذا يهمها منهم.. يكفى أنها هنا مع مدحت.

لم تعد تخجل من أن يراها الناس فوق مقعد بعجلات يدفعونها أمامهم.. غدا يرونها بينهم.. تمشى.. تجرى.. تضحك.. تقود سيارتها.. يلعب الهواء.. بشعرها.. وهى تخترق شوارع القاهرة.. مدحت إلى جوارها فى السيارة.. يتحدثان..

أفاقت من حلمها أمام صالة السفر..

هنا ستترك مدحت..

أحست انها تودع قلبها.. تتركه فى القاهرة.. التفتت تودع مدحت.. لم تقو فى البداية على رفع عينيها إليه.. نظرت إلى قدميه.. حذائه.. بنطلونه.. رفعت وجهها إليه ببطء.. مد لها يده مودعا.. وجهه الذى تحبه.. عيناه الحانيتان.. طال الصمت بينهما..

لو تكلمت لأجهشت بالبكاء.. همت ترفع رأسها نحوه.. انحنى عليها.. مدت ذراعها.. طوقته وطبعت على وجهه قبلة خطفتها بسرعة.. دق قلبها بعنف.. استدارت بسرعة تنكس وجهها فى حجرها.. مضت بها امها داخلة إلى الصالة..

عند الباب وقف مدحت صامتا يتابعها بعينيه

قبل أن تغيب فى زحام المسافرين.. التفتت تلقى عليه نظرة أخيرة...

[٣٤]

سبحان الله ملء البر..

سبحان الله ملء البحر

أسألك بعزك وبذلى

اسألك بقوتك وضعفى

الله.. الله.. الله... ياالله...

تتجاوب فى الساحة أصداء الذكر.. أصوات الذاكرين تملأ المكان بالخشوع.. صوت المؤذى يتماوج تحمله نسمات الفجر.. يطوف حول المئذنة.. يهبط.. يتردد فى ارجاء المكان..

تهتز الأضواء مع هبات الهواء.. فتزيد المكان رهبة وجلالا.. تطوف عيناه تعانقان المكان.. دموعه تغشى عينيه.. ترتعش الصورة.. يغيب عنه الصوت فلا تبقى منه إلا همهمات غير مفهومة تطن فى أذنيه.. يتوقف.. ينسحب.. أفكاره تسد عليه كل طريق.. لايريد العودة إلى البيت.. ليس فيه الا الصمت والوحشة.. أصبح كل شئ حوله غريبا.. حتى نفسه.. لايكاد يعرفها.. هل هو نفسه إبراهيم كوتة الذى يعرفه.. فنان تصطخب فى صدره النغمة الحبيسة تريد أن تنطلق.. يعيش حياته طولا وعرضا.. الدنيا عنده احساس.. لحن جميل.. عينا امرأة وكاس وصوت شجى يدق على وتر الاحساس.. أين كل هذا الأن.. لا أمل ياإبراهيم.. هذه هى النهاية.. حتى مدحت انقطعت أخباره.. نسيك وانتهى الأمر.. خسارة.

كان مدحت آخر أمل لك.. لكنه ذهب.. بلعته زحمة الحياة.. خدعتك نجية مرتان ياإبراهيم.. الأولى فى صميم قلبك والثانية فى مدحت.. أخذته منك لحنان

حنان؟!

وبدرية؟!.. كيف اواجهك يابدرية.. ماذا بقى عندى أقوله لك.. بدرية.. أنا لم أعد أصلح لشئ.. حاولوا نسيانى.. لن أنساكم لأنه بدونكم لاحياة لى.. لكن حياتكم لن تكون الا من غيرى..

على السور الحجرى جلس.. وجهه للبحر.. الأمواج لاتتوقف.. رفع عينيه إلى القمر.. يطل ويختفى خلف السحاب.

مرر كفيه أمام عينيه تحت الضوء الواهن.. هاتان الكفان هل تذكرها يا إبراهيم..قلب كفيه.. أطبقهما.. أرخى ذراعيه إلى جواره.. استند بكفيه يلمس برودة الحجر.. تحسست اصابعه الثقوب التى تخلفت فيه.. سنوات طويلة.. طويلة فعلت مافعلت بالحجر.. فكيف بك يا إبراهيم بعد هذا العمر تظل تحلم..

قام يغادر المكان.. قدماه ثقيلتان.. ببطء هبط من فوق الرصيف.. ومضى.. لايدرى إلى أين تحمله قدماه!

[٣٥]

مئذنتا المرسى أبو العباس والبوصيرى ذراعان ممتدتان فى خشوع إلى

السماء.. طالت بينهما النجوى ولفهما صمت التبتل والضراعة.. الطريق الممتد بينهما إلى حيث يقيم كوتة خال فى مثل هذه الساعة من الصباح.. أنوار الشوارع مازالت مضاءة..

ومدحت فى السيارة لايدرى إلى أين يذهب وقد طال بحثه عن عم إبراهيم فى كل الاسكندرية دون أن يقع له على أثر.. حتى بدرية اختفت معه..

هذه الاسكندرية بدون كوتة وبدرية مدينة صماء بلا قلب ولامعنى..

استوحش المكان.. كل الخيوط التى كانت تربطه به انقلبت قيودا تخنقه.. الحوارى.. الدكاكين.. الناس.. أمواج البحر والمراكب.. الصيادين.. لم يعد لها فى قلبه فجأة كل ماكان لها منذ دقائق..

ضاق صدره وأحس أنه يكره نفسه والدنيا..

أدار موتور سيارة نجية وابتعد عن المكان.. أكمل اللفة.. عيناه ماتزالان معلقتان بقبة المسجد..

القى نظرته الأخيرة على الطريق الذى يعرفه جيدا.. ثم انطلق والخوف يأكل قلبه..

[٣٦]

غريبا.. يتجول فى الشقة..

في البداية قال لنفسه أنه يوما بعد يوم سيتعود الحياة فيها..

مرت الأيام واحساسه بالغربة فيها لم يتغير.. يزداد ربما.. لكنه أبدا لم يشعر بالألفة نحوها.. حتى قطع الأثاث يحس أنه لايعرفها.. لم يألفها.. لايحس- ببساطة -أنه في بيته.. لايعرف من اين يأتيه الخوف.. يشعر بدبيبة يسرى داخله.. رنين التليفون يفزعه.. كالفأر في المصيدة.. داخله هذا الاحساس لحظة لكنه بسرعة ازاحه بعيدا.. نجية تعامله كما تعامل حنان..

نعم.. هو يحس بهذا.. كل شئ وضعته تحت تصرفه حتى تعود.. هذا صحيح لكنه أبداً لايحس أنه ينتمي إلى هذا المكان.. هل لأن بقاءه فيه مؤقت؟ ربما.. ربما أيضا لأنه يحس حنينا هائلا نحو بدرية وكوتة.. آه لو يعرف أين هما الأن.. يشتاق لسماع صوت بدرية يسرى فى جسده فتدب فيه الروح.. أين لياليك ياعم كوتة والسهر فى ضوء القمر فوق سطوح منزلك.. خلفنا باب غرفتك المفتوح دائما.. بين يديك عودك.. معا ندندن مانحب من ادوار وطقاطيق.. الشاى يا بدرية !! بوجهها الصبوح تهل علينا بدرية نجمة ليالينا الحلوة فتشرق الفرحة فى وجهك المتعب وتزغرد الدنيا فى أذنى فأنتشى وأدعو الله الا أفيق..

[٣٧]

عشرات التفاصيل الصغيرة تتزاحم فى ذاكرته منذ تسلم برقية نجية

الحلوانى هذا الصباح.. تذكر اول خطوة خطاها داخل هذا البيت.. بدرية يوم وقفت فى «الهول» تسأل عنه.. حنان.. عيناها تشردان بعيدا تبحثان عن المجهول فى تلك الليلة فى الشرفة.. دموعها.. ابتساماتها.. هزة رأسها.. التفاتة وجهها نحوه فجأة.. شعرها عندما يسيل فوق كتفيها مخفيا تحته بعضا من كنوزها المخبوءه.. تذكر ملمس خدها فوق كفه وهو يودعها فى المطار.. لن ينسى نظرتها له قبل أن تغيب داخل صالة السفر..

اعاد قراءة البرقية.. «نعود فى الثالثة صباح الغد.. العملية نجحت.. نجية».

هكذا تنتهى مهمته.. العملية نجحت.. ونجية لابد ستنفذ اتفاقها معه.. أو.. من يضمن ربما حاولت عقد اتفاق جديد.. لكن حنان.. ماذنبها.. هى لاتعلم من اتفاقهما شيئا.. ولن يخبرها مخلوق بما اتفقا عليه..

فى الموعد كان هناك..

أمام صالة الوصول وقف مدحت.. عيناه تبحثان بين القادمين عن نجية وحنان.. ترى كيف تبدو الآن بعد أن نجحت الجراحة.. حاول أن يتخيلها تجرى فوق ساقيها لكنه فشل.. لم يستطع حتى أن يتصور طولها واقفة..

حنان فى عينية لاتزيد على طفلة يحس بالعطف نحوها ولا يدرى لماذا يتصور انها شقيقته الصغرى يضعها على ركبتيه ويداعبها وتجيبه بشقاوة عينيها وتملأ الدنيا حوله صخباً وصياحا..

تنبه فجأة على صوت نجيه يناديه.. التفت رآها مقبلة عليه.. عيناها تلمعان بالفرحة.. خطواتها قوية واثقة.. مدت يدها تصافحة فى حرارة.. هز يدها بشدة.. لمحت فى عينيه السؤال.. اشارت له بعينيها: هناك.. تطلع إلى حيث اشارت..

كانت حنان هناك تنهى إجراءات الجمارك.. لم يتمالك نفسه من الدهشة.. صاح بفرحة: حنا آ آ آ ن.. التفتت نحوه.. رقصت السعادة فى نظرة عينيها.. لوحت له بكفها الصغيرة.. قفزت فى مكانها عدة مرات مشيرة له إلى ساقيها.. فهم مغزى إشارتها.. دبدب بقدمه على الأرض فى قوة.. قلدت أمامه رقصة الفلامنكو وضحكت.. ضحك.. ضحك بعض من شاهدوهما.. انهت اجراءاتها واندفعت تجرى نحوه تكاد تطير.. لم يكن يتخيل ان سيحس بكل هذه السعادة لمجرد أنه رأى حنان تسير فوق ساقيها بدون الكرسى.. فرحة حنان انتقلت منها إليه كما تنتقل النار فى الحطب اليابس.. بين ذراعيه.. القت حنان نفسها.. غابت فى صدره.. دار بها فى الفراغ من حوله سمع نشيجها المكتوم.. مسح فوق شعرها.. رفعت وجهها إليه.. حنان.. كفى بكاء.. هذه لحظات سعادة.. الدنيا كلها سعيدة من أجلك ياحنان.. مدت نجية يدها إلى حنان.. انتقلت إلى صدرها.. احاطتها بذراعيها.. ومضت بها ومن خلفهما مدحت.. التفتت حنان نحوه وهم يغادرون صالة الوصول.. ابتسمت الدموع بين رموشها، ثم أغمضت عينيها ونامت فوق كتف أمها..

[٣٨]

الحل هو أن نواجههم ياعم كوتة.. ليس الحل أبدا ما تفعله أنت وأوافقك أنا عليه.. ليس حلا أنك غادرت منزلك حتى لايعرفوا مكانك.. ولماذا يعرفونه؟!.. أليس من الجائز أن ما نفعله الأن هو كل مايطلبونه.. نعم.. أن تختفى من حياتهم ليخلص لهم مدحت.. بلا منازع ولاشريك.. اسمعنى ياعم كوتة وحاول أن تفهمنى.. أرجوك.. أفق لحظة وكلمنى .. لماذا لا نذهب إليهم.. نكلمهم نسأل مدحت عما ينتوية.. نفهم منه ياعم كوتة والأرزاق على الله. أبدا لن نعرض أنفسنا على أحد.. كرامتنا أغلى من كل الوجود.. أليس هذا ما علمتنا.. لاتنظر إلىّ هكذا.. نعم ومدحت أيضاً.. قابله وكلمة ياعم كوتة.. ساكون معك.. اسأله.. ربما تجد شخصا أخر غير مدحت الذى ربيت.. ربما يكون فى أشد لحظات احتياجه إليك وأنت تخفى نفسك عنه.. قد يتذكر أن له هنا عشاً ينتظره.. نعم ياعم إبراهيم هو فى قلبى مايزال.

ماذا قلت أيها العجوز الطيب؟.. امسح هذه الدموع وقل لى ماذا قررت؟؟

[٣٩]

نعم.. هو بعينه إبراهيم كوتة يا حسن.. أتذكر؟.. كوتة الذى لولاه لما كنت أنت اليوم هنا فى هذه الفيلا.. كوتة ساكن السطوح أمامك الأن فى هذه الردهة.. من فوقه هذه النجفة الضخمة وحوله كل هذا الأثاث..

أدار عينية تمسحان المكان.. كل شئ من حوله يشى بالثراء الباذخ.. وقعت عيناه على البيانو فى طرف الهول.. لم يستطع أن يمنع نفسه.. توجه

نحوه.. مازلت تحتفظ به يا عاشور.. لماذا؟! أمازلت تذكر؟.. هل نسيت؟.. كانت نجية تحفظ عليه أغانيها.. الحانى يا حسن.. أتذكر يوم أن رأيتها معى أول مرة؟.. أتذكر ماذا قلت عنها.. كيف صرعك جمالها.. سألتك أن تبتعد عنها.. لأنى أعرفك يا عاشور.. لكنى صدقتك.. ما علينا يا أبا على.. مالى أصدع رأسك بحكايات عجوز مخرف لن يصدقه أحد..

استدار إبرايهم كوتة إلى البيانو وانحنى فوقه يعزف.. غامت عينا حسن عاشور.. لايكاد يصدق..

كوتة هنا.. يعزف على البيانو القديم فى فيلتى.. هذه الأغنية بالذات.. لاشك أننى أحلم..

توقف العزف..

أشاح حسن عاشور بوجهه يخفى دموعه..

امتدت يده إلى جيب الروب تخرج المنديل..

رفعها إلى عينيه

كان كوتة فى مواجهته تماما

تجمعت فى عينيه كل قسوة السنين..

إبك ياعاشور فكم بكيت أنا وحيدا فى غرفتى..

ضاعت سنين شبابى.. نزفتها لحظة بلحظة ولم يشعر بحزنى أحد..

كنت قويا فى نظركم كما تصورتم تماما..

لكننى كنت أنزف.. كالحيوان الجريح أعوى داخل غرفتى وليالى الشتاء الموحشة تعربد فى الخارج.. إبك ياعاشور.. إبك.. لعلك تعرف معنى الألم.. وقسوة الظلم.. سأتركك الآن ياعاشور.. وحدك تواجه الماضى..

تسألنى لماذا جئت بعد كل هذه السنين.. جئت أقول أن إبراهيم كوتة مازال يعيش لأننى نفسى خفت عليه أن يموت.. أتفهم ياعاشور.. مازال يعيش!

[٤٠]

صوتة يحملها فوق أجنحته.. يرفرف بها عاليا.. تلمس باصابعها السحاب.. تطوف فوق كل بساتين الدنيا..

فى البروفات جلست تستمع وتراقب.. ركبت أحد الكراسى واسندت ذقنها إلى ظهره.. تحس أنها أخف حركة ببلوزتها التى شيرت وبنطلونها الجينز.. عيناها لاتفارقاه.. تفهمه دون أن يتكلم.. وما حاجته للكلام وهى هنا معه.. كوب الماء قبل أن يطلبه تكون قد قفزت وأحضرته.. حتى ساندويتشات العشاء كانت قد أعدتها بيديها من أجله.. أخذته من يده بعد البروفة إلى أقرب اريكة.. أجلسته وراحت تجفف له عرقه.. أسندت رأسه إلى ساقها.. خلع حذاءه ومدد ساقيه.. أغمض عينيه ونام كالطفل..

كمن يحلم.. أحس بيدها تمسح فوق شعره.. ماذا تريد هذه الفتاة؟- سأل نفسه- وهى لابد تفهم مابينى وبين بدرية..

ليالى طويلة لم تفارقة تسهر معه حتى الساعات الأولى من الصباح تراجع معه كلمات الأغانى تشترك.. تهتم.. تناقش.. تعجبه ملاحظاتها.. مبتسمة دائما.. سعيدة دائما..

حنان.. لا أستطيع أن أكون لك.. أنا لا أنتمى إلى هنا.. طوفان حبك واهتمامك هذا سيغرقنى.. انقذينى منه.. أعلم أنك تنتظرين مقابلا لحبك.. أعلم فلا تجعليه صنيعا يطوق رقبتى ويلقينى ذليلا تحت قدميك.

«مدحت لابد أن ينجح.. سينجح يا أمي اليس كذلك»

هزت نجية رأسها.. ابتسمت لحنان.. وراحت تتابع البروفات بثقة وتحفز.

[٤١]

شلالات الضوء.. زحمة الألوان.. باقات الزهور.. كلها مجتمعة تصنع جوا من البهجة يضفى على المسرح سحرا تعرفه. لكنه هذه الليلة مختلف.. الليلة ليست ككل ليلة.. دقات قلبها تتسارع.. مزيج من الخوف.. والترقب.. والقلق يجتاحها.

رفعت عينيها إلى وجه كوتة.. نفس العينان العجوزتان الوادعتان.. طيبتان كما عرفتهما. لكن فيهما هذه الليلة بريقا لم تره منذ سنين.. صارحته بهواجسها.. ربت فوق ظهرها وابتسم..

سينجح مدحت يابدرية فلا تخافى.. حياة المغنى أن يغنى فلا خوف..

أرادت أن تقول أنها تعرف هذا لكنها تخاف ألاّ تراه بعد اليوم.. هى لاتخاف عليه من الفناء.. خوفها أن تكون الليلة هى النهاية والبداية فى نفس الوقت. نهايتها وبداية حنان..

فى عينى كوتة تحت جواب سؤالها..

كأنك ياعم كوتة تعرف كل شئ..

نعم أنت تعرف كل شئ حتى أدق خلجات نفسى.. حتى دقات قلبى تعرفها.

أراح كوتة كفيه العريضتين فوق كتفيها.. أراحت رأسها المتعب لحظة على صدره ثم مضت معه إلى داخل المسرح..

[٤٢]

رغم زحام الناس استطاعت أن تلمحه.. وجهه الذى تحبه.. عيناه اللتان تعرفهما.. تعرف كل نظرة فيهما.. كل لمحة.. تعرف متى تفرح.. متى تغضب.. متى تتخابث أو تمكر.. عيناه كتاب مفتوح أمامها تقرأ فيه..

كان الارهاق واضحا على وجهه.. تعرفه عندما يكون مرهقا.. تحفظ كل كلامه.. لو كانت معه الأن لقال لها كعادته: اريد أن أنام سنة يابدارة.. ويضحك.. تحب اسمها فى فمه.. تضحك.. وجهه الذى تحبه يغيب وسط زحمة المحيطين به.. من خلفة رأت نجية وحنان تتبعانة كظلة.. حنان فى عينيها فرحة لا تخطئها عين.. ونجية صانعة هذا النجاح تبتسم للناس فى ثقة.. وهو يشق طريقه نحو السيارة يرد تحية مهنية بابتسامة تعرف أنها

ليست من قلبه.. فى عينيه ومضة ألم تعرفها جيدا.. احست بقبضة قوية تهصر قلبها.. ودت لو تصرخ ألما من أجله.. ترددت.. هل تناديه؟..

لحظات أحست بها عمرا طويلا.. تدافعت الصور أمام عينيها.. كل شئ تذكرته في لحظة.. كل شئ بلا ترتيب.. الاسكندرية.. الكازينو.. الانفوشى.. القمر.. شاطئ البحر.. السطوح.. شقة نجية.. المسرح.. كوتة..

طفرت من عينيها الدموع.. أحست بالاختناق.. لو ظلت فى مكانها لحظة أخرى لسقطت ميتة.. تلفتت حولها تبحث عن كوتة.. كان يقف خلفها.. على حافة الظلام يرتعش وجهه.. يمسح دمعة جرت على خده.. لاتدرى أن كانت فرحاً أو ألما ..التقت عيناهما.. هذا مدحت ياعم كوتة.. هز العجوز رأسه.. تمتم: مدحت.. مالنا نحن ومدحت يا ابنتى.. وخطا داخلا دائراة الضوء يشد بدرية بعيدا..

كالومضة.. كضوء البرق عندما يلمع ويختفى التقت عينى مدحت به.. انتقلت عيناه إلى بدرية بجانبه.. دون أن يحس هتف مدحت: عم كوتة

تظلعت كل العيون إلى حيث ينظر

كان كوتة قد أوغل فى الظلام تتبعه بدرية فى استكانة

توقفت فجأة كل المشاهد والرؤى فى عينى مدحت.. سقطت كل الأشياء والصور من حوله.. سكتت كل حركة.. سكتت كل الأصوات.. تحول عالمه فى لحظة إلى طريق يشده خلف كوتة وبدرية...

اخترق مدحت الاجسام من حوله وأفسح لنفسهِ طريقا خلال الدائرة المحيطة به وانطلق خلف شبحين ذابا منه فى جوف الليل المظلم.. التفتت حنان فى فزع إلى نجية.. وهمت بالانطلاق خلفه لكن قبضة نجية القوية كانت أسرع إلها.. امسكت بها إلى جوارها..

كان كوتة وبدرية قد ابتلعهما حضن الليل..

صرخ مدحت: بدرية..

لكنه لم يسمع جوابا لندائه..

توقف لحظة حائرا لايدرى إن كان يحلم..

التفت الدائرة حوله تبتلعة من جديد..

القى مدحت بجسمة داخل السيارة عيناه مازالتا تحملقان خارج نافذتها تفتشان فى وجوه الناس عن بدرية وكوتة..

جلست حنان إلى جواره صامته لاتعرف ماذا تفعل.. اشارت نجيه للسائق فانطلقت العربة تغوص فى الظلام..

تومض على جانبى الطريق بعض الأضواء وتختفى.. تقترب الوجوه وتبتعد .. يبحث فيها مدحت عن وجهين يعرفهما دون أن يقع لهما على أثر.. استقر سكين الحزن داخل قلبه.. القى رأسه على مسند المقعد.. غطى وجهه بكفية وراح يبكى فى صمت....




شمال شرق!

فى شرفة شقتها بالحى الهادىء تجلس. هدوءها الظاهر يخفى داخلها ثورة تريد أن تنفجر..

ترشف من فنجان قهو الصباح وتتأمل الشارع وتبتسم

الشارع هو نفس الشارع

لكن الناس لم تعد نفس الناس

مشوار طويل عندما تتأمله الان«أوديت» تدرك أنها كمن دخلت غرفة المرايا المسحورة .شاهدت صورتها فى اكثر من مرآة ..وبأكثر من شكل.

كانت فى أحدى المرايا فتاة برئية مشحونة بالحماس والصدق وكثير من الحب

الحياة فى عينيها كانت لحنا جميلا تسمعه و لاتعرفه مصدره

كانت تريد أن تقول للدنيا ها أنذا. أنا أوديت الجميلة الوديعة .. المثقفة .. بنت مختلفة تماما. ذكية .وذكاؤها حاد كشفرة الموسى.. قوية.. جريئة .. لكن جرأتها كانت قراراً منها حتى تستطيع ان تقفز الى ذلك النهر الثائر وتجرب السباحة فيه.

فى مرآة أخرى رأت نفسها الاستاذة .. امرأة ناضجة ..وفنانة كبيرة.. شهرتها تجوب الدنيا .. كلمتها مسموعة.. تليفونها لايكف عن الرنين.. الحياة تجرى بها ومعها والكل يلهث .. الايقاع سريع.. سريع. لاوقت لأى شئ.. وهى... يحملها التيار ويندفع بها ولاتعرف متى أوكيف تقرر الخروج من هذا النهر لتعيش حياتهاكما تريد هى لا كما يريدون هم .

هم .. آه من هذه الكلمة!

تنفث دخان سيجارتها وتسرح .. جيش من الذين انتفعوا بها.. صنعوا منها شمساً لتضئ حياتهم حتى لو احترقت هى.

هكذا لعبة الحياة ..وهذا هو قانونها الذى قررت اكثر من مرة ان تتمرد عليه. وقد حاولت لكن القانون كان أقوى ..

وفى مرآة ثالثة كانت سيدة المجتمع .. زهرة الصالونات ونجمة الحفلات على كل مستوى . من الفن الى السياسة . ومن الاقتصاد الى الرسم والنحت والآثار..

حياة حافلة دخلتها وعاشت فيها وفهمت..نعم فهمت رموزها بل واستطاعت ان تفك شفرتها..

لم تعد الحياة تخفى عنها اسرارها ..ولعل هذا هو المكسب الكبير الذى تجده بين يديها الآن..

حياة الكبار الذين عرفتهم صغاراً بين يديها كالكتاب المفتوح.. ترى ضعفهم وحيرتهم وارتباكهم. تكشف عجزهم .. طموحاتهم .. أحلامهم حتى مؤامراتهم الصغيرةوالكبيرة ..كل شىء أصبح الآن ملك يديها ..

يثقون فيها.. نعم

وهى لاتخون.. لكنها تعرف .. وهى تلعب أدوارها فى الحياة بشرف ويسعدها هذا جداً...

أوديت رجل!

كلمة أضحكتها جدا..

تأملت وجهها فى المرآة .. مازالت فى العينين نظرة تلك البنت المحبوبة الشقية التى ترتدى يونيفورم المدرسة وهى هى نفس نظرات الفتاة المتفتحة كالزهرة البرية تفتح صدرها للحياة وتدخلها بقوة ..تتنفس عطر الحياة بكل مافيها من حياة لاتخاف ولكنها لاتعرف ماذا تخبئ لها الأيام..

وقد قررت أن تدخل من ذلك الباب المسحور الذى يشاغلها بأنواره والوانه والسحر الذى يهمس لها..

دخلت .. بربشت بعينيها فى مواجهة الأضواء الجبارة اول مرة لكنها عندما اعتادت حياة الأضواء أصبحت لاترى الا فيها.. وبها إذا أطفأوها انطفأ كل شىء حولهاوسكتت انفاس الحياة..

تحت الضوء عاشت وفى السماء حلقت ورأت الدنيا تحتها.. كل شئ كان صغيرا وهى تحلق فوق ..لكن المشاهد تختلف عندما تنزل من فوق .. الى الناس الذين تكتشف أنهم يحبونها فعلا.. وبجد ويضعون عليها أمالهم الصغيرة باعتبار انها من اهل القمة ...

ولم يحدث انها خذلتهم ابداً..

لذلك يقولون عنها انها«رجل» ..

أوديت رجل!!

يقولها الناس بعضهم لبعض..

الحاج مصطفى البقال ..ويونس بائع الجرائد وسيّاس السيارات وبوابو العمارات وحرس السفارات من حولها...

لاينسى الحاج مصطفى مثلا انها كانت السبب فى تعيين ابنه موظفاً فى تلك الشركة بعد ان ظل عاطلا سنوات طويلة هددت بتوقف مشروع زواجه وفقده لحبيبته..

رجاها الحاج مصطفى وشرح لها الموقف ودموعه تلمع فى عينية. قال انه ظل ساهراً ينتظر عودتها من الأستوديو من أجل ان يسألها ان تتدخل .

كانت تكاد تموت من التعب. .لكنها ضعيفة امام دموع الرجال. حاضر ياحاج مصطفى. ناولها الرجل الورقة فيها كل البيانات.. تليفون منها وتم كل شئ... صحيح انها نسيت الموضوع بالكامل بعد ذلك . لكن الزفة التى قابلها بهاالحاج مصطفى ذكرتها بكل شئ...

الفرحة غالية . قال الرجل.. هذا ابنى سيد.. وانحنى سيد يقبل يد الهانم.. واشارالى الفتاة التى تقف خلفه لاتستطيع ان تمنع ابتسامتها ودموع الفرح فى عينها.. وهذه سعاد خطيبته .. سيتزوجان منتصف الشهر القادم .. واسرعت سعاد تنحنى لتقبل يد أوديت وهى تدعولها..

فى ذلك اليوم انطلقت الزغاريد من اكثر من مكان وصفق لها الناس البسطاء فى الشارع وقادتها وطافت حولها مظاهرة صغيرة حتى باب المصعد.

كان قلب اوديت يدق بالفرحة .. احست بشفا فيتها كيف يشعر الزعماء عندما تلتف حولهم جماهير شعوبهم ..شئ كهذا الأحساس ملأها نشوة لكنها عندما اوصت بتعيين ابن الحاج مصطفى لم تكون تتصور كل هذا..

فى تلك الليلة نامت أوديت ملء عينيها كما لم تنم من قبل وشعور بالارتياح العميق بملأ جو الغرفة واحست انها تسبح فى فضاء واسع تتنفس فيه بكل حرية ..

وحكايات كثيرة من هذا النوع لاتذكرها لكثرتها .. هى فقط تعرف انها لاتستطيع ان تقول لا لمن يطلب مساعدتها وكل شئ فى امكانها وعند أطراف أصابعها.. مجرد تليفون و بطاقة منها لاى مسئول وربما صورة عليها توقيعها وينتهى كل شئ ..

والآن !!

الآن تغير كل شئ!

هل هذا صحيح؟ تسأل نفسها ام انها فقط لم تعد بنفس حماسها القديم بعد ان شربت التجربة حتى الثمالة..

انها هى التى لاتزيد وقد كرهت كل شئ..

حياة مزيفة وعالم كريه كذاب مخادع بلا صدق ولاحب..

التليفون لايرن الا لسؤال روتينى ممل يأتيها من باب الواجب او متبوعاً بطلب أو خدمة

اما اغلب التليفونات فللثرثرة وسماع الأخبار والاشاعات.

والحياة تمضى رتيبة مملة كتيارنهر قديم هادئ استقر فى مجراه وقامت من حوله القرى والمدن.. حضارة نبتت على شاطئيه لكنه يمضى لايلتفت الى كل هذا.. يمضى الى المجهول الذى لايعرفه...

وقد تقطع الرتابة سهرة عند اصدقاء .. ثرثرة وضحك وطعام وشراب وحكايات وفضائح واسرار ثم لاشئ..

الراديو لايقول شيئا والتليفزيون ممل بلا قوام تماما كرمال الصحراء عندما تتساقط من بين أصابعها.

حتى الأفلام الجديدة تعرف حكاياتها واسرارها قبل ان يبدأ تصويرها ..

الحياة تمضي .. صحيح.. لكنها لاتمضى معها.. تتأمل حالها وتكتشف وهي تضحك شيئا غريبا إذا كانت الحياة تمضى للأمام فهى تقطعها بالعرض تماماً كالكاروهات الأسكتلدية!! ماالذى اوحى اليها بهذه الفكرة المجنونة.. انها والحياة يرسمان معاً مربعات عجيبة الشكل ..

لابد ان الأنتظار اثر على عقلها.. سألت نفسها: هل انا مجنونة ؟ ثم ضحكت بشدة اى انتظار ؟ وانتظار ماذا؟

....

....

ثم تدافعت الأحداث بسرعة

كان السطح يبدو هادئا .. حتى حدث ذلك الانقلاب المحموم فى كل شئ

الراديو يذيع نبأ اغلاق مصر لمضايق تيران

عبد الناصر يلتقى بالجنود فى جبهة القتال ويعقد مؤترا مع الطيارين يحضره كبار القادة

طائرات اسرائيل تقصف عمق مصر

أنباء عن اسقاط ثلث طائرات السلاح الجوى الإسرائيلى

الجماهير ترقص فى الشوارع

مارشات عسكرية

خبر أسود عن ارتداد الجيش للنسق الثانى .

النسق الثانى ؟! .. سألت نفسها .. هو الانسحاب اذن .. صرخت بكل عزمها : فى إيه ؟!

أسرعت الى سماعة التليفون تسأل كل من تعرفهم ماذا يحدث؟ لاجواب عند الجميع .. تليفونات المسئولين مشغولة..

صفارات الأنذار تدوى فى ليل القاهرة المظلم .. رجال الدفاع المدنى يصرخون : طفوا النور

تدور بسيارتها فى الشوارع المظلمة .. دموعها تجرى على وجهها .. هل هذه هى القاهرة التى تعشقها؟! القاهرة حزينة .. تبكى.. تلبس السواد.. يارب افعل شيئا من اجل مصر! لاتصدق ان تكون هذه هى النهاية .. الهزيمة مرة .. طعمها فى فمها مالح.. تترك سيارتها وتميل قرب احد الحوائط فى الظلام تريد ان تتقيأ .. ان تطرد كل مافى جوفها.. الكف القوية تلمس كتفها فى الظلام ..تجفل كجواد جريح .. تلمح ابتسامة تلمع فى الظلام .. شاب من شباب المقاومة الشعبية يحمل على كتفه بندقيته تشيكية الصنع ٧,٦٢ ..

ماتخافيش ياهانم مصر بخير!

قالها واثقاً .. تريد ان تصدقة .. اين عبدالناصر؟! تريد أن تسمع صوته .. اين المشير عامر الان؟!

ايام سوداء كالعماء تتذكرها وتهز رأسها كأنما تريد ان تنفضها من حياتها ..

كان طعمها كالعلقم .. أحداث سريعة .. رأت مصر تسقط على ركبتيها.. فى طوابير الكاكى وقفت .. لبست ملابس المقاومة الشعبية

ووضعت الطاقية الصفراء فوق رأسها.. تريد ان تذهب الى الجبهة .. طلبت ذلك من قائد المعسكر .. يعرفها .. قال : يا هانم نحن ننفذ الأوامر .

- أوامر ؟!.... أى أوامر.. وطننا يذبح وتقولون أوامر ؟!

الحزن .. قبضة ظالم قاسية تعصر القلب بلارحمة

واليأس . ..سواد مر تمتصه قطرة .. قطرة

الراديو مازال يذيع اغانيه التى تشعل النار فى دمها..«راجعين بقوة السلاح راجعين نحرر الحمى».

صوت عبدالحليم يأتيها ممتلئاً حماساً ووطنية يصرخ :«ابنك يقول لك يابطل هاتلى نهار ابنك يقول لك يابطل هاتلى انتصار»..

تسمع ودموعها تجرى على خديها.. حتى السلاح التشيكى الذى حملته فى معسكر المدرسة الثانوية بجوار مسكنها كان خاليا .. بلاذخيرة .هكذا ترى مصر الآن بندقية بلا ذخيرة.!!

ممتلئاً بالكوابيس مضى بها الليل..

صحت والشمس تصبغ حائط العمارة المقابلة ..كان الوقت ظهراً .. صوت الضجة فى الشارع يسد أذنيها .. الراديو يذيع المارشات العسكرية اسرعت الى الشرفة ..سألت بوابى العمارات الذين تركوا الدكك وتجمهروا عند الناصية..

- فى إيه ؟!

- رد أحدهم منفعلا

- الريس اتنحى !!

ـ ايه؟

ـ اتنحى !!

دارت الدنيا بها.. اسرعت تدخل قبل ان تسقط الى الشارع .. دقت صدرها بشدة.. ياخبر اسود ..

التليفونات لاترد.. البلد مشلولة .. المظاهرات تجوب الشوارع. اسرعت ترتدى ملابسها وتنزل الى الشارع .. فى نهرالناس القت بنفسها تحملها الامواج الى حيث تريد.. لا ارادة لها إلا ان يتراجع الرئيس عن قراره.. داخلها احساس قوى ان مصر تدخل نفقا مظلما لتعيش ليلا لاتعرف متى يطلع صباحه .. من يقود السفينة الجانحة الآن؟ كيف تخرج الى البحر من جديد لتواصل رحلتها مع الأيام من أجل هذه الملايين التى تجوب الشوارع تجتمع وتفترق لتلتقى من جديد وهدف الجميع واحد : بيت الرئيس فى منشية البكرى يستحلفونه الا يذهب !

أحداث كثيرة مازالت تفاصيلها تطوف فى خيالها تتأملها وتغيم عيناها الا ذلك اليوم الذى ايقظها فيه رنين التليفون المتواصل.. لاتدرى كم كانت الساعة ..رفعت السماعة الى أذنها متكاسلة .. مازال النوم يلون صوتها..

ـ الوو

ثم هبت كالملدوغة تصرخ .. سقطت سماعة التليفون من يدها وسقطت هى مغشيا عليها..

وفى الصباح خرجت جرائد مصر مجللة بالسواد

وغرقت البلاد فى حزن ثقيل

ايام...

تبتسم وتهز رأسها

....

فى المساء كانت تحضر حفلا للاستقبال ...ماتزال تذكر نظرة الانكسار فى العيون رغم الأضواء والورود .

رفع المخرج الكبير ذراعيه مرحبا: انتى فين ياهانم.. نسأل عنك منذ ايام.. تليفونك لايرد؟

قالت بابتسامة فاترة : فى الشاليه.كنت ارتاح...

قال ورنة التهويل ماتزال تلون صوته : لا ... لا ياهانم ..نحن نريدك فى عمل كبير

قالت لنفسها: «لم يعد الآن شئ كبيراً خلاص»!

قرأت السيناريو .. وضعت نظارتها الطبية جانبا ومسحت عينيها .. أطفات سيجارتها ورفعت سماعة التليفون . بهدوء يقترب من البرود قالت : متأسفة لاأستطيع ..

ثم وضعت السماعة

تعلم الآن جيدا أن هذا النوع من العمل اصبح لايليق بها ..شئ ما داخلها يرفضه.. عقلها الآن يحلق فى سماوات بعيدة.. تريد فنأمقاتلا ..سينما جديدة تخرج من الحارة وقاع المجتمع وصدور الناس .. فيها انفاسهم.. فيها مرضهم وعافيتهم.. أحلامهم كوابيسهم.. شوقهم للنور والحق والخير.. لهذا ترفض وستظل ترفض حتى تصنع فيها الذى تؤمن به الآن.

يوم السبت عشرة رمضان استيقظت من نومها متأخرة.. نظرت إلى ساعة الحائط.. كانت قد تجاوزت الثانية.. بحثت عن علبة سجائرها.. تذكرت انها صائمة.. بالأمس قررت أن تصوم .. الضجة فى الشارع عالية.. فى البداية كانت تظن انها احدى مشادات الشارع بين البوابين وأصحاب المحلات.. شيء من هذا.. شيء فى نفسها يتحرك داخلها لتسمع الراديو..

عبرت قواتنا المسلحة..

ولم تسمع باقى العبارة.. كالحلم.. كأمل طائر يأيتها فوق ظهر جواد مجنح.. عبرت قواتنا؟!

داخلها يفور بالفرحة والدموع.. انطلقت تجرى داخل شقتها كالمجنونة لا تدرى ماذا تفعل.. تجرى وتصرخ: عبرنا.. عبرنا.. فتحت باب الشقة وخرجت إلي السلم.. دقت أجراس الشقق المجاورة وصرخت فى بئر السلم وصرخت فوق باعلى صوتها: عبرنا.. عبرنا..

وتحول سلم العمارة إلى مظاهرة غريبة..

أسرعت إلى الشرفة بملابس النوم تصرخ فى الناس: عبرنا.. عبرنا والناس تجاوبها من الشارع: عبرنا ياست.. عبرنا ياست الريسة.. أسرعت إلى التليفون تطلب كل من تتذكره.. عبرنا.. ثم تضع السماعة.. على الفور طلبت أحد أصدقائها فى القيادة العامة.. ظلت تبحث عنه حتى عثرت عليه فى المساء.. قالت وأنفاسها تسبقها: اسمع.. أرجوك.. أريد أن اكون معهم .. نعم.. بأى طريقة.. مع المراسلين.. مع الصحافة.. فى المستشفيات.. فى أى مكان.. أرجوك.. ووضعت السماعة وهى تبكى..

فى الفجر كانت تجلس فى السيارة الجيب العسكرية تتطلع إلى الطريق المفتوح.. تمر إلى جوار الدبابات والعربات المصفحة وعربات المدفعية

والصواريخ.. دموع الفرحة مختلفة.. طعمها غير دموع الهزيمة والانكسار.. تعرف الآن الفرق بين الدموع والدموع.. تشير للجنود تحييهم وتتلقى ردودهم المبتسمة وترى الأمل يلمع فوق وجوههم.. آه لو تستطيع أن تعانق نظرة الانتصار في عيونهم..

مياه القناه لونها اليوم مختلف.. رمال سيناء بلون الذهب.

قال لها القائد: سنتوقف هنا!

ردت والفرحة داخلها ماتزال تريد الانطلاق: لماذا؟

ـ لانستطيع دخول ميدان العمليات

قالت ترجوه: هل يمكن أن أحمل احدى البنادق مثل الجنود؟

سألها القائد: من أجل التصوير؟

قالت في ثبات: مثلا..

حملت البندقية وسألت: متعمرة؟

رد القائد: نعم.. احترسي أرجوك

صوبتها وهي تسأله مبتسمة حدد لي حضرتك بالضبط أين اتجاه اسرائيل.. قلب اسرائيل..

قال القائد: هناك! وأشار في اتجاه الشمال الشرقي فانطلقت الرصاصات من بندقيتها دون توقف!!

وفي صدرها كان ينمو احساس اكيد بأن السفينة الجانحة قد عادت إلى عرض البحر من جديد..



ولد... وبنت!



لم يكن القطار قد غادر المحطة بعد..

كان مايزال إلى جوار الرصيف.. كيانا هائلا من حديد وجبروت.. يزفر.. ويهتز..

أطل الفتى من النافذة.. نحيلا كان.. على وجهة أثار مرض جلدى قديم.. عارى الرأس.. حليق الشعر.. فى عينيه طيبة.. وحيرة..

على الرصيف كانت وسط الزحام عجوز تبكى.. تلطم خديها.. وتبكى.. تدق صدرها وتبكى.. إلى جوارها وقف الرجل مفرود القامة.. وجهه لوحته الشمس.. تقلصت ملامحه بينما قبضت كفة على ذراع المرأة تهزها فى عنف فى حين تعلقت عيناها بنافذة القطار فلم تشعر بما يدور حولها..

على البعد.. خلفها.. كانت فى الزحام صبية تقف.. تتوارى.. تخاف أن تلمحها عين.. جميلة كانت وريّانة.. كيان صغير برئ يرقب المشهد بقلب ينتفض كحمامة مذبوحة.. رفعت الصبية طرف طرحتها تمسح دموعها فى صمت حزين.. مستسلم.. صابر..

من النافذة إلى جوار الفتى كانت الرءوس محشورة تطل.. يتزاحمون.. يتدافعون وكلهم عيون تطل وأياد تلوّح.. يثرثرون.. ينادون.. يضحكون.. والفتى ساكت ينظر.. يجاهد ليبقى فى النافذة ويستميت حتى لايتزحزح عنها.. نظراته موزعة بين المرأة.. والرجل.. والصبية.. لايريد أن يغيبوا عن عينيه..

زفر القطار زفرة عالية مبحوحة.. مهدودة الحيل واهتز.. ارتفعت الذراع ثم دارت نصف دورة إلى الأمام واندفعت باطشة لتهوى مستسلمة ثم تنسحب للخلف تستريح فتدور العجلات دورة كاملة وتسكت..

زعقت صفارة القطار محذرة «سأمشى».. أحست بها المرأة تنوح معها على فراق الولد.. دارت العجلات دورة.. ودورتان.. وثلاث وارتفعت دقاتها على القضيب الحديدى اللامع فى رتابة تؤكد أنها جادة فى الرحيل..

تذكر الفتى دقات أمه على صدرها بينما هم يحملون شقيقه الأكبر إلى الجبانة غربى البلد تحت صهد النهار وسحابات الغبار تثور تحت اقدامهم. كان يسير خلفها محكما قبضة كفه الصغير حول ذيل جلبابها الأسود فى حين راحت هى تؤدى طقوس حزنها الغريبة.. ترفع كفيها نحو السماء مفتوحتا الأصابع ثم تهوى بهما فوق رأسها فتتراجع طرحتها وينكشف شعرها.. مرات قليلة هى التى رأى فيها شعرها.. مايزال يظن أن شعر المرأة عورة يجب الايراها مخلوق.. تكور أمه قبضتيها وتدق بهما فوق صدرها.. تلطم فخذيها ووجهها ويلهث هو خلفها يكاد ينكفئ على وجهه..

....

على وجهه تدحرجت دمعتان خجلتان وانزلقتا فوق خديه.. غامت عيناه فاهتزت صورهم أمامه.. تداخلت المرئيات وسد الطنين أذنيه.. للحظة راودته فكرة أن يقفز إليهم من النافذة.. هز رأسه يطرد الفكرة والخوف من العقاب يهدده. تذكر حديث العمدة لأبيه عنه.. سمع فى كلامهم شيئا عن مصر والجيش.. ظل حديث ليالى البلد كلها فترة من الزمن وموضوعا لحكايات المصاطب تحت ضوء الفوانيس أو نور القمر..

فوق إحدى المصاطب قد يميل رأس نحو آخر.. يرشف من كوب الشاى الأسود فى يده رشفة متلذذة ليقول: أى والنبى زى ماباقول لك.. جاله الاخطارم البندر.. آنى ماشفتوش لأ.. لكن الغفير قال إنه متخلف كمان وضرورى يسلم نفسه..

قد يتدخل ثالث متصعبا: ياسلام ياولاد..حقيقى الزمن بيجرى.. بقى ابن إمبارح ده رايح الجيش!!

تحت جميزة أو توتة خارج البلد قد تلتف مجموعة من الشباب حول شيخ يحكى لهم: إيه رأيكم آنى لفيت بر الشام ده كله بلد بلد مع السلطة..

يدور بعينيه فيهم يقرأ وقع كلامه على احاسيسهم الطفلة.. يؤكد لهم: أمال.. كنا رجاله ياولاد (ينفخ صدره).. بس كنا غلابة ياولداه (يطرق فى الأرض) لاقدامنا ولاورانا.. وانت (يضع كفه العريضة فوق كتفه) لازم تكون راجل فى مصر.. فاهم؟..

يهز رأسه موافقا...

....

رفع كفه الخشنة ومسح دموعة من تحت عينيه..

«ابنى!!»

صرخت المرأة..

كان القطار يجر ذيله من جوار الرصيف دافعا رأسه للأمام خارج المحطة متسحباً ببطء.. متأهبا للانطلاق فى كل لحظة..

أسرع القطار

رفع الشيخ يده مودعا

أسرع

تقدمت الصبية خطوة.. خطوتان .. توقفت.. رفعت طرحتها إلى عينيها.. أنزلتها بسرعة.. لاتريد أن تفوتها لحظة من وجهه.. القت عليه نظرة بطيئة متأملة متأنية.. حصرته فيها.. ضغطته فى ننى عينيها.. انزلته فى قلبها واغلقته عليه.. استدارت عائدة.. انقبض قلبه.. مدّ ذراعة خارج النافذة يشير لها لتنتظر.. اعطته ظهرها ومضت.. تمنى فى قلبه لو التفتت مرة واحدة فقط.. مرة واحدة!.. أحس بالهم يرزح فوق قلبه.. وحط عليه يأس لم يجربة قبل اللحظة.. مالت الرءوس كلها دفعة واحدة وتزاحمت تطل تريد أن تلقى نظرتها الأخيرة على كل شئ قبل أن يبتلعهم المجهول.. لم يبق من وجه الفتى سوى جزء صغير شاحب وسط الوجوه لكنه يراهم.. عند نهاية الرصيف استدرات الصبية.. خفق قلبه.. ملأ عينيه منها.. على اتساعهما يحتويها فى عينيه.. فتح فمه.. أراد أن يقول شيئا.. همسه لنفسه.. لم يسمعه أحد.. بحثت هى عن وجهه بين الوجوه.. لم تستطيع العثور عليه.. وجوه كثيرة صفراء وسمراء وبيضاء.. حواجب وأنوف وأذان وعيون.. عيون.. عيون.. وأذرع تلوّح وأكف تمسك بحديد النوافذ.. دققت نظرها فى الوجوه تفتش عن الوجه الذى تعرفه بينهم.. لم تجده.. بحثت عن عينين.. عسليتان.. طيبتان.. تعرفهما.. فيهما لها كلام كثير.. لم تجدهما..

كان القطار قد أدار ظهره للبلد ومضى منطلقا.. جباراً.. لايعرف الرحمة.. لايفهم ولايحس.. يلملم ضجته خلفه ويبتعد.. يسحب قلبها معه.. ينزعه

من صدرها.. يسيل المر داخلها.. يسقط قطرة.. قطرة في جوفها.. تحس طعمه على لسانها وفي عينيها وداخل كل مسام روحها.. تمد ذراعها إلى الحائط بجوارها .. الدموع في عينيها لاتريد أن تسقط.. عند المنحنى البعيد يتلوى القطار كالثعبان الأسود ثم ينطلق صارخا.. تسمع صرخته فيرتجف كيانها كله.. يغوص في خضرة الحقول وزرقة المساء كتلة باردة تهتك المجهول ولاتتوقف..

أشباح بعض الأيادي مازالت على البعد تلوحّ ورءوس تطل.. تبتعد المحطة.. يبتعد القطار.. تبتعد.. يبتعد.. يتحول كتلة سوداء عند الأفق تفقد معناها وتترك في القلوب المرارة.

شخصت المرأة بعينيها إلى الأفق البعيد.. في جوف القطار يجلس ولدها أو يقف.. يطوى القطار حديده عليه.. يخطفه منها ويجرى.. الخائن يسرع به إلى حيث لاتعلم.. لاتعلم أيضا كيف سينام قبل أن تطل عليه.. تنحنى فوقه تغطيه.. تمسح بيدها فوق جبهته وشعره.. يمديده يخطف يدها يقبلها وتسرح عيناه في سقف الدار.. لاتعلم ماذا سيأكل.. من بيده سيعد له طعامه.. من سينادى عليه كل صباح ليصحو.. يفتح عينيه الجميلتين.. يبتسم.. كالطفل يتثاءب.. تنهره متصنعة الشدة لينهض.. يقفز يقبلها ويطلب منها الدعاء.. كالماء يتسرب كل هذا من بين أصابعها.. تكوم حزنها فوق قلبها وتستدير عائدة.. إلى جوارها الرجل لايفتح فمه.. هؤلاء الرجال قلوبهم قوية.. يحتملون مالا تحتمل النساء.. هكذا قدرها لاحيلة لها فيه.. عيون الرجل تحدق في لا شئ.. جامدة.. تعلم أنه يحبه ولايقوى على فراقه في شيخوخته لكنه عنيد لا يستسلم بسهولة..

....

وحدها وقفت فوق الرصيف.. مضى الكل من حولها وتفرقوا وانتهى كل شئ كأن لم يكن أبداً.. هل كان كابوساً وانزاح؟!.. مطلقا فالكابوس فوق قلبها جاثم مايزال.. وهو؟.. هو سافر.. أخذوه منها.. لكنها تعلم أنه سيعود.. شئ داخلها يقول لها إنه سيعود.. وسيحكى لها.. وستسمع له.. صوته الصافى يترقرق فى أذنيها.. أنفاسه تلفح وجهها كنسيم الصبح المغسول بالندى.. تجمعت الدموع فى عينيها.. غلبتها دموعها.. رفعت كفها إلى فمها واسرعت تغادر المحطة.. هبطت الدرجات الثلاث.. وعند نهاية السور انطلقت تعدو فوق الطريق الترابى الداخل إلى البلد..

....

أطرقت بوجهها تنظر إلى صفحة الماء.. قالت دون أن ترفع وجهها أنها لم تكن تريد أكثر من أن تقول له كلمة واحدة قبل أن يسافر.. أضافت فى حزن حقيقى انها لم تستطع.. سكتت.. مدت كفها ترش الماء.. شردت نظراتها تفكر فيه.. كفه الكبيرة تحتضن كفها الصغيرة.. تستكين فى يده لحظة ثم تسحبها بسرعة وتتلفت حولها فى خوف..

يسألها فى لهفة: خايفة؟!

قلبه يدق بالحب

قلبها هى يدق بالحب.. والخوف

يهمس لها: تتجوزينى يابت؟!

يخفت كل شئ حولها.. تعانق نظراتها الحقول حولها.. يتحول المشهد حلما تتفتح فيه كل نوارات الحقول.. يهز الشجر اوراقة يشاركها فرحتها.. اولادها يجرون أمامها.. دجاجاتها تسرح أمام باب الدار وخبزها فى الفرن يبعث رائحته تملأ دارها بالخير تنتظر الرجل عندما يعود..

مدت ساقها فى الماء.. عمودان من المرمر الدافئ يحتضنهما الماء ويدور حولها فى نعومة يتحسسهما برفق..

رفعت رأسها.. نظرت فى عيون البنات حولها وقالت منتشية انها فى الحقيقة كانت تريد أن تقول له كلاما كثيرا.. كثيرا.. لكنها لا.. لا تقوى أن ترفع عينيها فى عينيه..

زفرت فى حرقة فتنهدت البنات وارتفعت ضحكاتهن.. مالت تملأ حفنتيها من الماء ودارت تطسهن حتى يتوقفن عن الضحك.. نهضت متعجلة تمسح كفيها فى ذيل ثوبها.. وانطلقت تطاردهن..

....

... وآه من الغربة

سكين تغوص فى احشائة وتتلوى داخلها..

وحش جبار لايرحم يتربص بالانسان الوحيد وينقض عليه ينهش قلبه..

طعم الدموع فى فمه لكن البكاء لايليق بالرجال.. طافت برأسه صورتها تقطع حوارى البلد.. تسير بمفردها على الجسر.. تعدو مع البنات تدوس باقدامها الصغيرة زهرات البرسيم.. يقطع عليها الطريق.. تجفل كحيوان خائف.. تنتفض بين يديه تبحث عن مهرب وتنفلت هاربة.. تذكر أمه بجلبابها الداخلى وقد شمرت اكمامها وتربعت أمام الفرن والعيش يخرج على يديها اقمارا وردية الخدود تفوح منها رائحة البلد.. رائحة يشمها فى كل بيوت الفلاحين وتهدأ لها نفسه..

فى مكانه.. تذكر أن الغد موعد الرية الثانية للأرض ويوم الجمعة كان اتفاقة لأخذ البقرة الجديدة للعشار فى السوق.. قال لنفسه.. لابد أن أمه الآن تضع الشاى أمام أبيه والبلد كلها نفس واحد بعد أن طرحت عن نفسها عماء الليل.. واستيقظت بيوتها وحيواناتها وطيورها..

اغمض عينيه كمن يحلم.. هى أيضا لعلها الآن أمام باب الدار ترسل دجاجاتها تخرج للخلاء.

هب كالملسوع على اسمه فى النداء

صرخ كما يصرخون «افندى ى ى م !»

لكنها خرجت مرعوشة.. خائفة.. باغتها النداء فسمعها مبحوحة تصدر من حلقة الجاف..

نعم.. الاسم اسمه.. وهذا اسم أبيه يعرفه. واسم جده كذلك.. يرحمة الله كان رجلا مازالت البلد كلها تذكره للآن وتترحم عليه.. يقولون ان فيه منه شبه.. لكن المؤكد أنه لم يجلس مثله القرفصاء فى طابور طويل الآن يتوقع فى كل لحظة جديدا لايألفه ولايعرفه ويحتار كيف يتعامل معه.. الدنيا هنا غريبة عنه.. ينفر منها ولا تريد البوح باسرارها طواعية..

سمع اسمع كما سمع اسماء الآخرين.. أحسن بالحب نحوها.. كل هذه الاسماء من كل مكان فى مصر.. أرض الله.. وناس.. أمم من كل مكان كلهم مثله وفيهم أيضا من يخافون مثله لكن ينكرون خوفهم يبلعونه كطعام خبيث لايجرؤون على تقيؤه..

اسمه هنا يسمعه غريبا.. وقعه على أذنية لايعرفه كأنه ليس اسمه.. هنا هو شئ منفصل تماما عنه..

قام يجرى إلى أول الطابور

- مدّ

مَدَ

- اجرّ

جرى

أمام صف الضابط وقف.. انفاسه تهرب منه

- اسمك؟

تسارعت دقات قلبه..ريقه جاف.. ردد الاسم دون احساس وأحس كأنه يخون نفسه واسم ابيه وجده.. لم يعد يحس نحوه بنفس المودة والألفة التى كان يحسها لاسمه دون أن يدرى.. شعور جديد لم يجربه قبل اللحظة..

- اللى بعده..

انضم للتشكيل.. اصطفوا جميعا فى طوابير طويلة صرخ فيهم صوت يأمرهم:

- صفا

يجمع فيها كل قوته

- انتباه

حادة كالمدية

- لليمين دررر

لليمين داورا

-للشمال دررر

للشمال داروا

- قف

تخشبوا

لايدرى من أين خرج الصوت.. تسلل من مكام ما فى الطابور كلسان الأفعى يتحسس الهواء.

«ماترسى بنا على برّ ياعم.. يمين دور ولاّ شمال دور» كالنبات الشيطانى فى الأرض البور نبعت الضحكة.. فلقت قشرة الأرض وسرحت زهورها تفرش كل مكان.

«اخرس»

كالقدم الغليظة تهوى فوقها تهرسها مرة واحدة.. ماتت الضحكة على شفاههم..

وقف بينهم مشلول الضحكة لايعرف لماذا ضحك ثم لماذا سكت

- إنت ياعيل.. إنت.. بتضحك ليه؟

- ......

- أيوه إنت.. بتضحك ليه؟

- آنى موش عيل

- إنت مرة!

ثم على صدغة هوت الكف الغليظة

فى عيون الرجلين راحت غيوم الغضب تتجمع وتتكاثر.. غضبه هو ممزوج بخوف غريب لم يألفة.. بدأ يتسلل داخلا إلى روحه.. ينتشر فيها كالسم.. يسرى بطيئا حتى يستولى عليه فيصيبه بالشلل والموات..

خوفه قبل هذه اللحظة كان خوفا عبيطا.. الآن فقط يدرك هذا.. كان خوفه زمان طفوليا من نوع مختلف لو استطاع لسخر من نفسه الآن وقهقة ضاحكا.. كان يخاف الليل وأولاد الليل.. يخاف نظرة أبيه الصارمه.. وأمه حين تكشف رأسها وتعرى صدرها تدق عليه ووجهها للقبلة تهدد بالدعاء عليه فيرتمى تحت قدميها ضارعا ألا تفعل..

خوفه هذه المرة مختلف.. يحسه خبيثا.. لايعرف سببه ولايستطيع تحديد مصدره.. لايستطيع أن يمسكه فى يده..

نزلت الكف الغليظة على صدغه فاحس ارتطام اللحم باللحم.. وعظام الأصابع تنفذ إلى عظام وجهه..

اندفع الدم حاراً من انفه وسال على شعيرات شاربه النابتة لم تلوى خطاً قانيا لزجاً هابطا من شفته العليا إلى فمه فاحس على لسانه طعمه الملحى الصدىء..

تجمعت دمعتان كبيرتان فى عينيه.. أحس ضعفه ورأى نفسه عاريا أمامهم.. سقط الطفل من عينيه أمامه لم قام من سقطته وركض هاربا..

تدحرجت الدمعتان فوق خديه فمدّ أصابعه المرتعشة تمسحهما.. فى كفه اختلطت دموعه بدمه النازف من أنفه.

- انتباه..

خيم على الطابور كله وجوم صامت مقبض

- معتادان.. مارش..

....

....

الناس والأشياء فى غبشة الفجر أشباح مهزوزة تتحرك بعيدا عنه لايستطيع التمييز بينها..

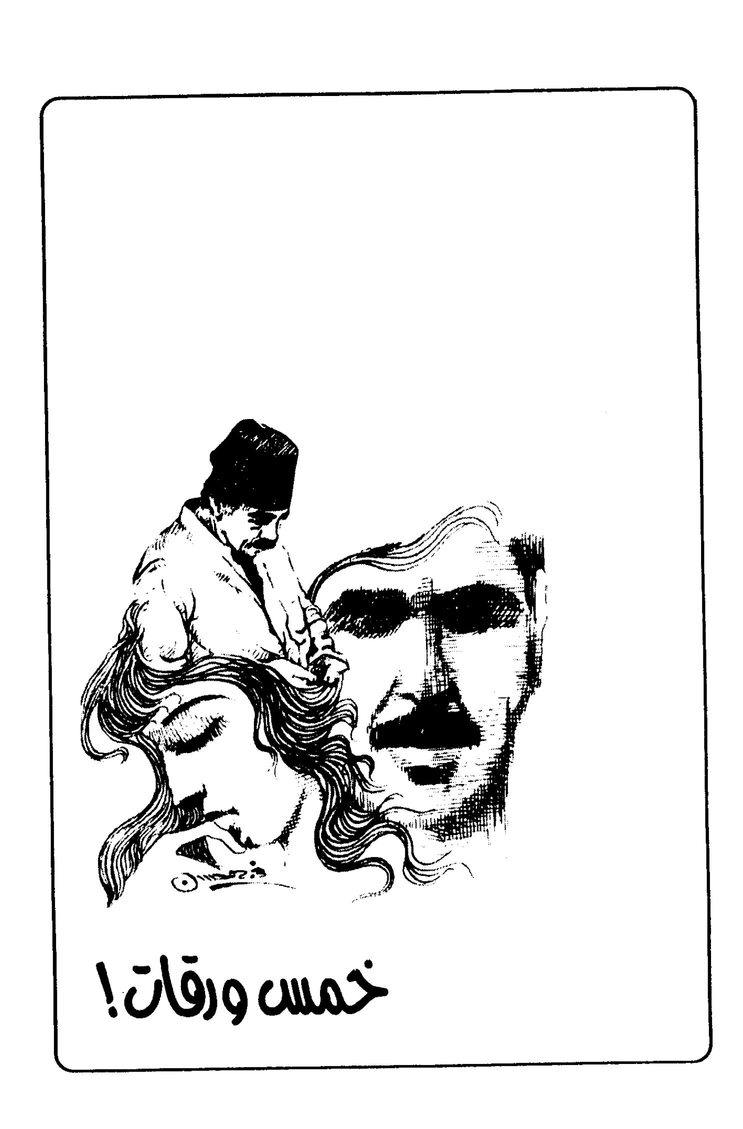
انطلقت العربة بهم تخترق الشوارع الخالية حتى خرجت إلى الخلاء وراحت تقطع طريقا طويلا لايعرفها.. البيوت على البعد عامرة تشغى بالحياة وتتردد داخلها أنفاس ليل قلق وصباح ممتلئ بالتفاؤل..

اسند ظهره إلى حديد العربة وقرفص ساقية أمام صدره مستسلماً لاهتزازات العربة.. فجأة اقتحمت الضحكة سمعه.. انطلقت من مكان لايعرفه.. اصابته.. مال بجسمه فوق حديد العربة المهتزة يبحث عن مصدرها..

كان قرص الشمس قد بدأ يطل برأسه كرة صفراء عفية استردت قوتها بعد رحلة ليل طويلة مجهدة..

ملأ رئتيه من نسيم الصبح الرطب الطرى وابتسم.. ارتكن إلى السور الحديدى يريح ظهره بينما كان النور الزاحف فى اصرار يمتد شيئا فشيئا يتسلق الأشجار ويفرش الأرض ويصعد حوائط المبانى يكنس أمامه الظلمة الحائرة ويفيض فيغمر بدفئة كل شئ..

فتح عينيه على اتساعهما يرقب المشهد حوله بفرحة.. راحت فرحته تنمو داخله.. يحس بها تستيقظ وتتمطى.. هب واقفا على قدميه وقفز يتعلق بالقضيب الحديدى فى سقف العربة المكشوف يعب بعينيه كل مايراه مسلماً نفسه لنوبة من الضحك لم يستطيع منعها بينما راحت العربة تهدر فى الخلاء المفتوح تحت النور دون توقف..


خمس ورقات!

□ الورقة الأولى □

عاشور الرشيدى

لا تفرح كثيراً حتى لا تحزن أكثر.. ولا تحزن كثيراً حتى لا تنسى طعم الفرح ! حكمة آمن بها منذ سقط فى بئر صدمة رحيل نوال. الآن يعرف معنى الفقد والوحدة وغياب الحبيب . خيط من المرارة يلوّن طعم أيامه فلا يجد لها معنى إلا فى العودة إلى الماضى . يسرح ويتذكر ليلة العزاء. نعم يعلم أنه عزاؤها لكنه لا يصدق.. كأنه يعيش حلماً مزعجاً.. ويلح عليه خاطر أنه يحضر عزاء صديق له.. أى صديق وأنه فور أن ينتهى من هذا الكابوس سيعود إلى البيت.. وفى الغرفة سيجدها فى انتظاره تسأله مبتسمة هل تعد له طعام العشاء؟! يا االه! يهز رأسه بشدة يطرد خفافيش الأحزان التى تحوم من حوله . يرفع عينيه إلى صورتها. يكلمها أحياناً لكن بغير صوت ويعلم أنها تسمعه لكنه ينسى نفسه أحياناً أخرى. يدرك ذلك حين يسمع همهمة البنات خارج باب الغرفة الموصد. يدور فى غرفته عاقداً ذراعيه خلف ظهره. تماماً كعادته فى الهيئة قبل أن يحال إلى المعاش. يلقى من النافذة نظرة إلى الشارع.. يراه هنا مختلفاً عن الشارع أمام الهيئة.. هناك كان يرى جانباً من البنك والمكتبة وطوابير طلبة المدرسة المجاورة وزحام العربات. يسمع الضجة. كانت تزعجه نعم. لكنه اليوم يفتقدها. يحن إليها كجزء من منظومة حياته التى عاشها ولم يعرف غيرها. يسرح بأفكاره بعيداً.. فى مكتبه بالهيئة. يتذكر سكرتيرته رشيدة بعينيها الدامعتين دائماً والخوف الذى كانت تضعه كالقناع على وجهها كلما دخلت إليه.. والأخرى ماذا كان اسمها؟ يحاول أن يتذكر. ينادونها أم

سعيد . آه. مدام نادية المهمومة دائماً بالبيت والأولاد وزوجها هولاكو كما تسميه وقفشات الزملاء وتعليقاتهم التى تموت بمجرد أن يفتح باب غرفته خارجاً أو عند وصوله إلى الهيئة وبرعى الساعى يسبقه ويفتح له الطريق. يضحك ساخراً حين يتصور حال بيومى الزلبانى الذى يجلس الان على مكتبه ويتذكر أيام كان يتركه واقفاً أمام المكتب ينتظر الإذن بالجلوس.. رجل طيب. سيركبه الموظفون كالحمار فهو لا يستحق الا هذا لأنه فعلاً حمار لا يفهم حرفاً فى عمل الهيئة أو نظام الإدارات فيها مثله هو الذى يعرف مكان كل ورقة فى كل ملف بشهادة الجميع .. وتدور فى رأسه حركة الهيئة ونظام العمل فيها من عتبة الدخول حتى مكتب الوزير نفسه.. يضحك وهو يردد فى نفسه: ماذا ستفعل فى كل هذا يا بيومى الكلب؟ آه .. كم أخشى عليك الآن من سهام العفريتة التى دخلت الإدارة قبل خروجى إلى المعاش.. ماذا ستفعل معها يا أخيب زئر نساء عرفته البشرية. ماذا ستفعل وليس لك حزمى وعزمى ونظرتى النارية التى توقع القلوب وقراراتى التى تخرج كحد السيف؟ لاشك أنها ستجرك خلفها كالخروف أو تقودك أمامها كحمار السباخ! ما علينا .. يتنهد وهو يستدير ليفتح الباب.

«العشاء يا بابا» .. تقولها سعاد كبرى بناته. جميلة أنت يا سعاد .. لكم تشبهين أمك لولا أنك لست فى مثل طيبتها ووداعتها. لكن البنت مسكينة .. يشفق عليها. صامتة أغلب الوقت لا تعرف إلا بيتها وعملها. مثله بلا أصدقاء أو صديقات . وما حاجتنا للأصدقاء والصديقات وليس وراؤهن إلا الهم ووجع القلوب ؟ فى عينيها دائماً نظرة حزينة تسميها شقيقاتها لؤماً لكنه يراها ضعفاً وانكساراً..

الحوار على العشاء أغلبه بين الشقيقتين الكبرى والوسطى ولا يبقى للصغرى إلا المشاكسة .. قد يجد نفسه مضطراً أحياناً للمشاركة في الحوار بكلمة أو كلمتين.. أو متدخلا لفض الإشتباك بين البنات ليعود فيسرح مع ذكرياته التى لا تنتهى .. عالم جميل هذا الذى يعيش فيه بخياله أجمل كثيراً من حرارة الواقع وناره التى لا ترحم. كانت نوال تجلس هنا.. إلى شماله. ضحكاتها لا تتوقف والبنات أطفال فى وداعة العصافير . تتكلم وتسأل .. حتى عن عمله تسأله وتناقش معه تفاصيله.. وهو يحكى ويسترسل ويفضفض.. يشرح ويشكو ويهدد. تعيش معه تفاصيل يومه كأنه يحمل المكتب معه إلى البيت والغريب أنها لم تكن تبدى ضيقاً بحديث العمل كغيرها من الزوجات ضيقات الأفق. يتحسر ويمصمص شفتيه فتتبادل البنات نظرة يكتمن معها ضحكات تريد أن تفلت ثم يواصلن ثرثرتهن التى لا تنتهى والتى ترتفع حرارتها أحياناً فتعلو أصواتهن. عندئذ يدق المائدة بقبضته فى غضب وينهض يلقى المنشفة فى غيظ عائداً إلى غرفته يغلقها عليه حتى الصباح..

◻ الورقة الثانية ◻

سعاد الرشيدى

أسمها الكامل سعاد عاشور سيد علم الحق عبد العال الرشيدى. يا سلام! قطار سكة حديد هذا أم أسم؟ وأين الحق هنا هذا الذى له علم وقد جاوزت عامها الثلاثين ولم تتزوج ؟! بنات فى مثل سن أصغر أختيها تزوجن وأصبحت لهن بيوت وأبناء أولاد بنات وهى كما هى! تذهب للهيئة

التى لولا والدها عاشور بك مديرها العام لما دخلتها. تذهب كل صباح وتعود العصر. نفس الحدوتة كل يوم بلا جديد. حياة مملة فارغة باهتة ولولا «صاصا» لما كان لها أى طعم . صاصا.. عصام الودود الطيب الذى ينتظرها بابتسامته الطفلة كل صباح أمام الهيئة لا يصعد إلى المكاتب الا معها ولا يبدأ يومه إلا بعد صباحها . هى أيضاً تستريح له وتشعر بالألفة معه. طبعاً هى لا تحبه! تقول هذا لنفسها فى سعادة. يكفيها أنه هو الذى يحبها بل ويموت فى حبها. كلامه الحلو يسعدها عندما يهمس به وهو يسير خلفها كظلها. تتذكر صورته فى المطبخ وتبتسم وهى تعد له سندويتشات الأفطار التى يحبها.. الجبن بالبطاطس والكاتشاب مع سندويتشات البيض المسلوق والجبن الرومى. تعجبها شهيته المفتوحة للطعام دائماً..

تهز رأسها وتلف السندويتشات وتضعها فى حقيبة يدها.. تتصعب وتتساءل : إلى متى يارب ؟ لابد من ختام لهذه الحكاية.. نهاية تكون بداية لحياتها مع عصام فى بيت واحد فيه أولاد وزياط ومذاكرة وفوضى وهم أزلى! تحضن الهواء وتحلم لتفيق من حلمها على صورة حماتها المقبلة دولت هانم التى لن تفرط بسهولة فى وحيدها« صاصا» لتعيش وحيدة فى شقتها الواسعة بالمنيل بعد وفاة زوجها المرحوم فاضل (بك) الشرشابى .

والعمل يا رب؟ .. ليال كثيرة سهرتها سعاد تفكر فى حل. فى المكتب تضع رأسها على كفها وتجلس تفكر . يطل عليها عصام بوجهه الطفولى المرح يشير لها من بعيد مبتسما ويذهب . تسترخى فى مقعدها وتواصل التفكير. أمام باب الهيئة تصافح عصام مودعة وتذهب لتركب الميكروباص.

من النافذة تصافح عيناها وجوه الناس. لابد أن لكل منهم أيضاً مشكلة. المهم الآن مشكلتها هى. أمام باب الشقة لمعت الفكرة فى رأسها: لماذا لا يتزوج عاشور الرشيدى من دولت هانم حماطة؟! سيضحك أبو ها للاسم لكن هذا لايهم الآن.. وسيعلق عليه ساخراً..وماله.. يضحك ويسخر لكن صحيح .. لماذا لا يتزوجان؟ المرأة غنية كما يقول عصام. وعاشور بك رجل محترم. وكيل وزارة سابق مازالت فيه بعض ملامح الشباب القديم. رجولته لا تخطئها العين. شخصية متميزة ومظهر أنيق . ستفتن المرأة به كما سيبهرها حديثه وثقافته. فلتبدأ خطتها إذن والآن ليتحقق حلمها وتنتقل دولت هانم من شقتها فى المنيل إلى شقتهم هنا .. هكذا تخلو شقة المنيل لتصبح شقة سعاد الرشيدى.. وفيها تبدأ أجمل أيام عمرها مع عصام الشرشابى..

❑ الورقة الثالثة ❑

وداد الرشيدى

طريقها فى الشركة الإستثمارية التى تعمل بها تعرفه جيداً. يحكون عن« دودى» وطموحها هنا ويقولون أن هذه البنت ستصل سريعاً ! من حسن حظها أن رئيسة القطاع تحبها وهى أيضا تعرف أن طريقها لتحقيق طموحها لابد أن يمر بمكتب الدكتورة شيرين أبو النجا حيث العلاوات والمكافآت وبدلات السفر للخارج وربما أيضاً الوظيفة المرموقة فى المكاتب الخارجية للشركة. وطريقها مع الدكتورة شيرين التى عادت من الخارج بأكثر من شهادة دكتوراة فى الإدارة والقانون طريق مفتوح.. فالدكتورة لا تعرف إلا

العمل. تمشى فى الشركة بنظارتها الطبية وشكلها الرجالى الذى أصبح مثار تعليقات كل العاملين فى الشركة فيسمونها شيرين بك لكنهم للحق لا ينكرون طيبتها رغم شدة حسمها ووجهها الذى لا يعرف الإبتسام طريقه إليه . وهى ودودة ومجاملة.. وجادة وصارمة فى نفس الوقت .. شخصية احتاروا فيها وعرفت « دودى» وحدها طريقها معها وعثرت على مفاتيحها التى لم يكتشفها أحد غيرها. تعرف وداد أن لكل إنسان نقطة ضعفه وهى باب الدخول اليه. ولأن الدكتورة شيرين إنسان فلابد أن لها أيضاً نقطة ضعفها. بسهولة وضعت وداد يدها على باب الدخول إلى قلب وعقل الدكتورة شيرين التى نسيت أنوثتها فى زحام العمل والأوراق والأرقام.. عرفت وداد الباب وبدأت تدق عليه دقاتها الخفيفة بابتسامتها التى تفتح القلوب وخفة دمها التى تثير المرح فى كل مكان تذهب إليه فيسمع صوتها فيه ليدرك الجميع أن وداد مرت من هنا..

يعرف هذا جيدا يونس زميلها فى الإدارة وأن كان يتحفظ عليه أحياناً وينكره فى صراحة أحياناً أخرى لكنه مطلقاً لا يستطيع أن يكرهها بسببه فهو يحبها.. نعم يحبها ويعلم ذلك جيداً عن نفسه وأن كان أيضاً يعلم أنه خارج دوائر أهتمامها وأنه ليس إلا زميل مثل عشرات غيره من الزملاء لكن يكفيه أنه يحبها . فكر يونس كثيرا فى أن يفاتحها بحبه. مجرد تفكير .لكن خوفه من أن يفقد حتى موقعه منها كزميل يدفعه للكتمان. فهو لا يحس بطعم للحياة من غيرها ولايتصور الوجود بغير شقشقاتها فى مكاتب الإدارة كلما أهلت هنا أو هناك. سيسكت فربما تتغير الظروف من يدرى. وهل هناك أجمل من الأمل ليعيش عليه؟! يسعده هذا التفكير .. ويشقيه ويعذبه أيضا فى وقت واحد ولكن ما الحل؟

إلا شيء يبقى على حاله .. هذا ما يؤمن به يونس لكن وداد التى ظنت أن الرياح ستظل تدفع سفنها إلى مرافئها لم تتوقع شيئاً من هذا ولا حسبت حسابه وفى هذا التوقيت بالذات والذى بدأت فيه تحلم بنفسها وهى تصعد السلم الوظيفى بثبات.. وقع الخبر عليها كالصدمة. سألت يونس فهو يعرف كل أخبار الشركة . اكد لها يونس الخبر.. نجوى كمال التى نسيوها يوم سافرت للعمل بالخارج ستعود وكيلة للإدارة !! ولماذا الآن يانجو ى وما الذى ذكرك بنا ؟ ستكون نجوى بلاشك عقبة فى طريقها وحاجزاً بيها وبين الدكتورة شيرين ومن يدرى كيف سيكون شكل العمل معها. فى كلامهم عنها هنا يحكون أنها شخصية تختلف مائة وثمانين درجة عن الدكتورة شيرين. فهى جامدة عصبية سريعة الغضب . يحترمها الرؤساء لذكائها وشدتها وسلطاتها الواسعة داخل الشركة وخارجها فى علاقاتها مع العملاء. الباب مفتوح أمامك اذن يانجوى وستنهار بأسرع من البرق أحلامك يا وداد!

انتهت اذن أيام العسل الوظيفى وبدأت أيام الجد يا دودى . والعمل؟ سألت وداد نفسها. وجاء ها الرد سريعا . لابد من التحرك وفوراً . لابد من قرار موفق.. هل تطلب نقلها من الادارة إلى أى موقع آخر فى الشركة؟ ولكن الى اين؟ ومن يضمن لها انها لن تخرج الى فخ تسقط فيه ويكون الحال اسوأ مما تتخيل؟ هل تستقيل لتستكمل رسالتها الجامعية وتستأنف عملها بالجامعة؟ معقول؟! وتتنازل بهذه السهولة عن كل طموحها لمجرد ان نجوى هانم شرفت الادارة؟ فلتشرف الادارة . وماله؟ تقولها وداد لنفسها وتهز كتفيها فى قلة اكتراث تعمدته لتخفى خوفها فى صدرها وتهدأ قليلا لتعرف كيف تفكر..

والحل؟!

الحل أن تضمنى الدكتورة شيرين. تضعيها فى جيبك بأى شكل .. وبسرعة ! هكذا تؤمنين مستقبلك بل وتجعلين من شيرين حارسة عليه. راحت الفكرة تتشكل داخل رأس وداد.بدأت بسؤال يونس عن كل ماتريد معرفته عن نجوى كمال . سيساعدها يونس ولاشك وان كانت لاتعرف كيف . امام المصعد وقفت تنتظر وورشة العمل داخل رأسها لا تهدأ. امامها وقف يونس ينظر إليها فى رجاء منكسر لايقوى على التصريح. ثبتت عينيها عليه فارتبك. ومضت الفكرة فى رأسها. هتفت فجأة: وجدتها يا يونس وجدتها ! ولم يفهم يونس شيئاً . دخل خلفها المصعد وعشرات علامات الأستفهام تلعب داخل رأسه!

....

فى الفراش جلست سعاد ساهرة تفكر وقد خاصمها النوم .ستبدأ من الصبح بصاصا أولا مع مايحبه من سندويتشات البسطرمة والبيض والجبن الرومى ومربى المشمش. سيسمع منها وسيفهم وسيساعدها من أجل مستقبلهما معاً . خطوتها الثانية ستكون مع عاشور الرشيدى نفسه لابدمن اقناعه بالزواج والخروج من قوقعة وحدته فحرام على رجل فى مثل مركزه وثقافته وحيويته أن يستسلم لأوهام الشيخوخه وشمس شبابه لم تغرب بعد.. مازالت تضئ الأفق ولو من بعيد. الزواج سيكفيه وسيغنيه عن غياب الأصدقاء . سيترك حياة مثل حياته ليس فيها الا المرض والاكتئاب الى حياة فيها الدفء والونس . على يقين هى أن الألحاح بمثل هذه الفكرة مع كل مشاعر الحب والعطف الذى تبديه ومع رجل مثل عاشور الرشيدى لابد

سيأتى بالنتيجة المطلوبة . المهم اذن أن يقتنع عاشور بك ثم تبدأ الخطوة الثالثة. ستشرح له وتوضح أوصاف شريكة حياة المستقبل وسترسم لها أجمل صورة . فهى بنت الحسب والنسب. أصيلة من بيت كريم وست بيت ممتازة أما أخلاقها فيشهد بها الجميع .. طيبة ووداعة ورقة ولن أحدثك عن جمالها فمازالت شمسها تسطع وتضئ الدنيا. ثم هل على جانب عريض من الثراء.. رشيقة وعاطفية وساحرة تفيض حباًوحناناً وتفهماً والأهم انها تدرك قيمة الرجل... رجل مثل عاشور الرشيدى لابد انها ستضعه فى عينيها وفوق رأسها..

....

حتى الصباح ظل نور الأباجورة الى جوار فراش وداد ساهراً معها بينما هى ترسم خطوط الحل الذى توصلت اليه غيرعابئة باستغاثات نهاد التى لم تسمع منها أو من سعاد الا الزجر والتوبيخ على جرأتها فى مقاطعة إفكارهما.. ولم تجد نهاد أمامها سوى ان تغطس فى فراشها مستسلمة على مضض لعلها تستطيع ان تنام ..

فكرت وداد . ان الدكتورة شيرين تحبها. هذا واضح وسيساعدها كثيراً وتستطيع هى بما عرف عنها من خفة دم ونعومة ورقة أن تدخل من هذا الباب ستبدأ خطوتها الأولى بايقاظ انوثة شيرين. ستمتدح ذوقها وشياكتها وتبالغ فى وصف جمالها. تسريحة شعرها وجمال عينيها. بالتدريج وخطوة خطوة حتى لاتفاجأ برد فعل عكسى يجئ كالصدمة فيفسد لها كل تدبيرها. أما إذا سارت الخطة كما رسمت لها فستنتقل إلى مرحلتها الثانية بأن تصف للدكتورة شيرين ما أحدثه جمالها وسحرها بشخصية مرموقة على جانب

كبير من العلم والثقافة والمظهر والوضع الاجتماعى وكيف أن هذا المعجب الولهان لم يتوقف عن التفكير فيها منذرآها أول مرة وأنه قد باح لها بما فى قلبه ولم يعد يفكرالآن فى شئ سوى ان يعرف ردها . ستسألها شيرين بالتأكيد عن صاحب تلك الشخصية. خجلة بالطبع لكنها تريد ان تعرف . فضول المرأة داخلها يتوق للمعرفة وستكون اكبر مفاجأة عندما تعرف أنه عاشور الرشيدى والد وداد .. دودى التى تحبها .رسمت وداد ابتسامة واسعة على وجهها عندما تخيلت وقع المفاجأة على وجه شريرين وأحست أنها اصبحت قريبة جداً من تحقيق الهدف..

أما الخطوة الثالثة وهى الأصعب فستكون محاولة تسلق أسوار قلعة عاشور بك نفسه. لكنها تعرف كيف تتعامل معه . ستضع كل جهدها فى محاولة اقناعه بمركز الدكتورة شيرين ومستقبلها الذى ينتظرها وأصلها الطيب وستقول له انها لايمكن ان ترضى اوتوافق ان تحتل مخلوقة أياً كانت مكان أمها سوى شيرين فقط لأنها وحدها التى تراها جديرة برجل مثل بابا عاشور الجميل .. وبمكان كانت تشغله من قبلها ست الكل ماما نوال ..

❑ الورقة الرابعة ❑

نهاد الرشيدى

مظلومة هى دائماً ومنسية منذ رحيل مامانوال القلب الحنون والصدر الذى كان يضمها ويحتويها .. نعم أبوها طيب وعطوف ولايرفض لها طلباً لكنه منذوفاة نوال وهو يعيش بعيداً فى أرض غريبة أو كأنه سقط فى بئر من العزلة فرضها على نفسه داخل غرفته يقضى فيها أغلب وقته. يغلقها عليه ولايخرج للجلوس معهن أوعلى مقهى مع الأصحاب .حتى جلسته معهن

أصبحت أقرب إلى أداء الواجب والمحافظة على آخر خيوط الترابط الأسرى. اما سعاد ووداد فهما جزيرتان معزولتان تفصلهما عنها بحار من الأنانية والمصلحة. لايعلمان بالطبع باحتياجها ا لشديد لهما اليوم اكثر من الأمس خاصة وهى ترى وتسمع وتلاحظ حركتهما الغريبة فى البيت فى الفترة الأخيرة ومحاولة كل منهما الأنفراد بأبيها فى غرفته . وشوشات وهمس ومحاولات للاقناع تبدأ هامسة ثم ترتفع حرارتها والوالد يسمع حينا ويعرض أحياناً ويشيح فى ضجر مرة ويصيخ سمعه مرة أخرى حتى لبسه الأهتمام فراح هو يتحين الفرص مع كل من الأختين ينتظرهما لمعرفة آخر الأخبار وأدق التفاصيل.

ماالذى يحدث بالضبط؟ ماسر هذا الانقلاب الذى تلاحظه فى شخصية الرجل وابنتيه؟ نعق داخل رأسها غراب الشك وصهلت جياد الدهشة ! ستعرف كل شئ إن لم يكن منهما فمنه هو وبطريقتها الخاصة فهى نهاد وهى لاتقل ذكاء أو مكرا عن سعاد ووداد لولزم الأمر!!

دخلت خلفه غرفته . اغلقت الباب وتقدمت فى هدوء . قالت وقد نكست وجهها فى الأرض : هذا الذى يحدث يا أبى لايعجبنى وأنا لا أوافق عليه ! ثم سددت إلى عينيه نظره قوية.. ارتبك الرجل لحظة ! اتراها تعرف أى شئ؟! وتساءلت هى : هل ابتلع الطعم؟

قال بعد تردد انه مجرد تفكير فقط وانه لم يتخذ قراراً بعد .. ولو قرر شيئا فلن يقرره قبل معرفة رأيها.. ثم إن المسألة فى نظره هى ماذا سيفعل بعد أن تغادر هذا البيت كل بنت من بناته الى بيت زوجها؟!

الآن تأكدت نهنوش من الوسواس الذى كان يلازمها كالكابوس . المسألة اذن انهما تلحان عليه ليتزوج؟ لكن لماذا؟ وماذا عنها هى بعد ان يتركها أبوها وهى فى منتصف الجسر بين عالمين فلاهى أتمت تعليمها الجامعى وتخرجت والتحقت بالوظيفة .. ولاهى تزوجت وأصبح لها بيت وزوج وأبناء؟! لهذا قررت نهاد أن تخوض معركتها للاحتفاظ بأبيها الذى ستأتى غريبة كالنسر لتخطفه. ستحافظ عليه إلى جوارها هنا فى بيت نوال.. وسيبقى بيت نوال كما تركته بلا أى تغيير!

❑ الورقة الخامسة ❑

ليلى يوسف

كم عاماًمرت؟ لا تذكر ! فجأ ة وجدته أمامها . الناس من حولهما يمرون فلا تراهم. سقط العالم من عينيها فى لحظة وسكتت كل الأصوات! نعم هو . نفس الابتسامة نفس نظرة الثقة فى عينيه . تذكر الآن كل شئ. ثلاثون عاما أو اكثر لم تره منذ لوّح لها مودعاً من النافذة بينما كانت هى فى التاكسى تمسح دموعها فى الطريق الى شقتهم الجديدة التى انتقلوا إليها بعد أن علم والدها ما بينها وبينه.. ولماذا هذا كله؟ لأنه تجرأ يوما وهو الموظف البسيط فتقدم يطلب يدها وكان الرد هو الرفض ثم الرحيل من الشارع كله إلى حيث لايعرف عاشور ..

كانت تظن أنها نسيته.. وأنه أيضا نسيها حتى وجدته اليوم أمامها وقد أبيض شعر رأسه لكنه زاده جمالا.. لم تجد ما تقوله فى البداية غير أن تهمس

اسمه بينها وبين نفسها ثم تمد له يداً وضعت فيها كل شوقها ولهفة سنوات الغياب..

مفاجأة كانت أيضاً لعاشور الرشيدى . انها هى ولاشك . نفس ضحكة العينين وإن لمع فيهما مايشبه الحزن .. رقيقة كما عرفها لكنها فقدت بعض رشاقتها التى يعرفها فزادت فى عينيه جمالا..

ليلى!

خرج الاسم من بين شفيته نغمة موسيقية ثم بدأ بينها حوار متردد لايخلو من الشوق والدهشة والرغبة العارمةفى المعرفة . لايذكر على وجه التحديد فى أى شئ لكنه يذكر أنه كلمها كثيراً واحساس بالسعادة يرفرف من حوله ويطن فى أذنيه .

فى غرفته جلس ينقر بأصابعه على المنضدة لحنا يعرفه . قام يفتح الراديو والنافذة ودار فى الغرفة خفيفا كراقص الباليه. فى مساء ذلك اليوم رأته بناته يلبس أجمل بذلاته ويعقد أشيك ربطات عنقه فى عناية ويضع شيئاً من البارفان ويقف أمام المرآة يسوى شعره.

رانديفو اذن يابابا؟!

وضحكت البنات .غمزلهن فى سعادة وانطلق خارجاً.

كان لقاؤه فى بيت ليلى ختاما لعدد من اللقاءات اتفقا فيها على كل شئ إلا هذه المفاجأة التى كانت تنتظره هناك .

وقفت ليلى تستقبله ومن حولها البنات . صافح عاشور بناتها ثم تهاوى على أقرب مقعد ..

فى الطريق الى بيته كان يسأل نفسه ماذا يفعل ؟ فى اذنه صوت ليلى الضاحك يقول معابثاً: عليك من الآن مسئولية تزويج البنات!

وقف وسط زحمة الشارع قائلا بصوت مسموع: نصف دستة ياربى؟ ماذا أفعل الآن يانوال؟!

ولم يشعر عاشور بعشرات العيون التى التفتت نحوه فجأة ولابهؤلاء الذى وقفوا يهزون رءوسهم فى أسى لذلك الرجل الذى يكلم نفسه!!



بنت الأصول!



انها قصة زواج لاغير ..!

ومع ذلك فقد أقامت مصر وأقعدتها.. قسمت الرأى العام والسياسة وأهل الرأى وعامة الناس.. وكانت محل كثير من المناورات السياسية الدقيقة التى دارت من وراء ستار..

ذلك انها كانت صدمة عنيفة للناس فى الكثير من معتقداتهم القديمة عن « الشرف» و«الحسب والنسب»! وما إليها من أخلاق اجتماعية راسخة وضعتها هذه القضية موضع التجربة والتفسير الجديد!

لم تكن مصر فى ذلك الوقت ـ كما قد تتصور ـ فارغة البال، خالية من الهموم.. فقد وقعت قصة الزواج هذه فى سنة ١٩٠٤ .. وهى السنة التاريخية التى عقدت فيها انجلترا وفرنسا ما يسمى «بالاتفاق الودى».. وقعت بعد شهرين فقط من هذا الاتفاق الودى الذى بمقتضاه وافقت فرنسا على اطلاق يد انجلترا فى مصر، مقابل موافقة انجلترا على اطلاق يد فرنسا فى مراكش !.. صفقة من صفقات تقسيم النفوذ التى مازالت تعقد بين لندن وواشنطن وباريس حتى اليوم!.

وفى نفس هذه السنة أيضا كانت مصر قد بدأت تفيق من ذهول الهزيمة وصدمة الاحتلال .. فهى تتحرى الأسباب وتتعلم من أخطاء العرابيين..وأخذت المذاهب السياسية تتبلور وتتناقش ويعنف بينها الخصام .. كتمهيد لابد منه قبل اليقين .. وارتفعت الأصوات منادية بالمطالب والحلول.

وكان أقواها صوت شاب نحيل اسمه مصطفى كامل . مضى يجوب البلاد موقظا الرقود، صارخا فى الآذان الثقيلة مناديا بالجلاء والدستور مؤكداً أن « انشاء مجلس نيابى هو الأنشودة التى يجب ان يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال.. وسواء كان ذلك سابقا أو لاحقا للتخلص من رق

الاحتلال، فإنه الضمان الوحيد والكفالة الصحيحة لسلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة».

كانت مصر تتنفس على أبواب يوم جديد.. وأحداث جديدة .. فبعد سنتين من قصة هذا الزواج يقع حادث دنشواى .. وبعد ثلاث سنوات تتكون الأحزاب لأول مرة منذ عهد جمال الدين الأفغانى . . تتكون ثلاثة أحزاب في خلال ستة شهور: الحزب الوطنى يرأسه مصطفى باشا كامل. وحزب الأمة يرأسه محمود باشا سليمان وحزب الاصلاح الدستورى ويرأسه الشيخ على يوسف بطل قصة هذا الزواج!.. فى هذا الجو الحافل بالنذر .. انفجرت قصة هذا لزواج وشقت طريقها إلى الصفحات الأولى من الصحف جنبا إلى جنب مع صيحات الجلاء والدستور..!

فمن هو العريس ؟!

نذهب إليه فى شارع محمد على .. وكان فى ذلك الوقت يكاد يكون الشارع الرئيسى فى القاهرة .. كما نراه الآن تقريبا.. نفس المبانى والبواكى والدكاكين المتلاصقة والحوارى التى تصعد إليها السلالم .. الا أن أرضه كانت ماتزال مرصوفة بالبلاط، وأن الترام لم يكن قد عرف طريقه إليه بعد.. وفى وسط الشارع تقريبا نجد دار «المؤيد» اكبر الجرائد اليومية فى ذلك الوقت . فإذا دخلنا الدار وصعدنا إلى حجرة صاحب الجريدة ورئيس تحريرها، وجدنا شيخا أنيقا، يجلس إلى مكتب كبير .. وقد تربع على مقعده فى جلسة أزهرية وثنى ركبته، وأخذ يكتب مسندا الورق إليها. انه الشيخ على يوسف .. الرائد الأول للصحافة المصرية الكبيرة.

وكان على يوسف قد ترك قريته النائية فى الصعيد «بلصفورة» فقيرا غاية الفقر، وجاء إلى القاهرة على ظهر مركب فى النيل ليتلقى العلم فى القاهرة

لعله ـ ان أفلح ـ يصبح فقيها أومعلما أو ان فشل يتكسب الرزق بقراءة القرآن على المقابر!

على أن آمال الفتى الفقير، الزرى الهيئة، كانت أعظم جدا مما يظنه الناس .. فهو لايلبث أن يتوقف عن مواصلة الدراسة فى الأزهر ويهتم بالمسائل العامة فيجرب قلمه فى رسائل يبعثها إلى الصحف، ثم تغريه الصحافة فيدخل فى ميدانها ويعمل فى مجلة «القاهرة الحرة» .. ثم يصدر مجلة «الآداب» .. ثم لا تمضى سنوات حتى ينشئ أكبر جريدة يومية فى مصر هى «المؤيد» يكتب فيها كتاب الطليعة فى ذلك الوقت : قاسم أمين وسعد زغلول ومصطفى لطفى المنفلوطى ومصطفى كامل الطالب بكلية الحقوق قبل أن يتخرج ويصدر جريدة اللواء.

وكماكان على يوسف أول مصرى صميم يملك جريدة يومية كبرى كذلك كان أول صحفى يصل بقلمه إلى مركز أدبى رفيع فى الدولة ..فقد توثقت صلاته بأكبر الشخصيات المصرية المعاصرة، واتصلت أسبابه بعد ذلك بالخديوى عباس حلمى الثانى ثم بالخليفة التركى فى القسطنطينية وازدان صدره بأرفع أوسمة الدولة ونياشينها..وأصبح رجلا مرموقا مرغوبا، إلى جانب كونه صاحب قلم جبار يغرسه كل صباح فى صدر الانجليز..

كذلك كان على يوسف أول صحفى يحاكم فى قضية صحفية هامة.. ذلك أنه أصدر جريدة «المؤيد» بعد شهور قليلة من صدور جريدة «المقطم» التى كان يمولها ويوجهها الانجليز .. وكان الأحتلال ينفق على المقطم جريدته هذه ويساعدها بكل أنواع المساعدات التى وصلت إلى حد تزويدها بالأحكام القضائية لنشرها قبل النطق بها..!

وكان طبيعيا ان يحارب الانجليز جريدة «المؤيد» التى تنافس «المقطم» وتعارضها.. وأن يكون من وسائل حربهم لها حرمانها من الأخبار الهامة ..

ولكن «المؤيد» بالرغم من ذلك دأبت على نشر البرقيات السرية التى كان اللورد كتشنر قائد الجيش المصرى فى ذلك الوقت يرسلها إلى وزير الحربية المصرى عن حالة الجيش المصرى فى السودان .. وكانت آخرها برقية لكتشنر تقول ان الوباء يفتك بالجنود المصريين هناك . وكان لنشر البرقية دوى كبير، وانطلق الانجليز يبحثون وراء المسئول عن تسرب هذه البرقية حتى عثروا عليه : موظف وطنى صغير يعمل فى مكتب تلغراف القاهرة اسمه« توفيق أفندى كيرلس» كان ينقل الى الشيخ على يوسف نص البرقيات!! وأخذت النيابة تحقق مع على يوسف وتوفيق كيرلس..

وكان وكيل النيابة المحقق شابا بدينا يضع على عينيه نظارة مذهبة اسمه محمد فريد! فلم يلبث أن حفظ القضية «لعدم كفاية الأدلة» وثار الانجليز من جديد، وأصدروا أوامرهم بنقل وكيل النيابة محمد فريد الى الصعيد فاستقال وانضم الى مصطفى كامل.. وأعيد التحقيق من جديد.. وقدم على يوسف وتوفيق كيرلس الى المحاكمة مرة ثانية.

وكانت المحاكمة تحظى باهتمام الرأى العام كله.. كما كانت مناسبة لالقاء المرافعات الوطنية علنا ليسمعها الناس جميعا، وجاء الحكم ببراءة على يوسف والحكم على توفيق كيرلس بالحبس ثلاثة شهور . ولم يرض الانجليز بهذه النتيجة فقدموا طعنا فى الحكم، وتركز الاهتمام من جديد حول قاعة محكمة الأستئناف . واذا بمحكمة الاستئناف تبرئ الاثنين: على يوسف وتوفيق كيرلس .. وتهجم الجماهير على قفص الأتهام ـ كما روت المؤيد ـ حاملة على يوسف على الأعناق الي سلم المحكمة الخارجى!

وكان من حظ الشيخ على يوسف ان يقدم مرة اخرى الى المحاكمة فى

أواخر أيامه، لانه طبع كتابا« بذيئا» جدا اسمه «المسامير» وضعه ثائر قديم هو السيد عبد الله النديم، مهاجما فيه مفتى الباب العالى فى تركيا (*)

هذا اذن هو العريس !

وكان على يوسف قد تزوج فى شبابه زيجه« متواضعة» تناسب شبابه المجاهد الفقير .. فلما وصل الى هذا لمركز الكبير، والثراء العريض أيضا، فكر ـ كعادة المصريين الى عهد قريب ـ فى ان يتزوج مرة ثانية زوجة ترضى ـ هذه المرة ـ مكانته الممتازة.. تكون جميلة، ثرية ، من بيت «حسب ونسب»!

وهداه البحث إلى بيت «السادات»! فهو بيت ثراء وعراقة من وقت بعيد، وهم «أشراف» ومن سلالة الحسين وأحفاد النبى ﷺ.. وكان قد اتيح له أن يرى فى بعض المناسبات «صفية» هانم صغرى بنات السيد السادات، وان يعرف عنهاأنها نالت قسطا من الثقافة تعتبر إذا قيست إلى مستوى نساء عصرها ثقافة رفيعة..

وتقدم الشيخ على يوسف يخطب «صفية» التى كانت بيضاء اللون، جميلة الوجه، بدينةجدا على طراز الجمال الذى كان مفضلا عند الشرقيين فى ذلك الزمان.. ولم يرض السيد السادات بسهولة. لم يرض الا بعد ان توسط« للعريس» الوسطاء من الوزراء والأمراء والكبراء..

وتمت الخطبة .. وقدم الشيخ على يوسف الهدايا ـ المهر والشبكة ـ وكانوا يسمونها فى ذلك الوقت «النيشان» !

ومرت سنة.. وسنتان .. وأربع سنوات.. والشيخ على يوسف لايكف عن

---

* هو «عبدالهادى الصيادى» مستشارالسلطان عبدالحميد الثانى وقد ألف فيه عبد الله النديم كتابا على غرار الدكتور« أطاكيا» الذى وضعه فولتير سخرية من مستشار فردريك الأكبر امبراطور النمسا.. وقد وصف الكتاب كل من قرأوه بانه«كتاب بذئ جداً» !!

سؤال الأب: متى يزف إلى عروسه؟ والسيد السادات يماطل ويسوف ويخلق العراقيل .. وضاق الشيخ على يوسف بالأمر. ورأى أن الوضع أصبح مهينا لكرامته.. كما ضاقت العروس بالأمر مثله!

وقرر الشيخ فى نفسه أمرا .. وانطلقت الرسل بينه وبين خطيبته وبعض أهلها من الذين كانوا يؤيدونه .. وفى يوم معلوم، خرجت «صفية» من بيت ابيها، مع بعض اهلها فى زيارة بريئه لبيت السيد البكرى فى «الخرنفش» وكان السيد البكرى من أقارب أسرة السادات .. وفى بيت السيد البكرى كان القسم الثانى من الخطة الموضوعة، كان الشيخ على يوسف جالسا. ومعه المأذون .. وجاءت العروس، وعقد القران، واحتفل الحاضرون احتفالا سريعا بالزفاف وخرجت العروس مع عريسها تشيعها الزغاريد الى بيت الزوجية فى حى «الظاهر».

واستيقظ السيد السادات فى اليوم التالى ليقرأ فى «المقطم» نبأ زفاف ابنته الى الشيخ على يوسف! وكانت «المقطم» قد تعمدت ان تنشر الخبر دون ان تشير الى مكان عقد القران،لتلقى على النبأ جوا من الريبة.

وفقد الرجل لبه وجن جنونه .. أتهرب ابنته من بيته بغير علمه؟ أتتزوج من رجل غريب رغم أنفه ؟ أيأخذها على يوسف على هذا النحو قسرا ، ويخطفها الى بيت الزوجية خطفا؟ أيتآمر أهل بيته جميعا على انفاذ هذه الخطة المدبرة؟

وقد يبدو فرار فتاة من بيت أبيها وزواجها بغير علمه فى أيامنا هذه أمرا قليل الغرابة، لو أنه عرف طريقة الى النشر لما استغرق أكثر من أسطر قليلة فى صفحة الحوادث المحلية ان كانت الهاربة من بنات الشعب، أو قصة قصيرة فى صفحات «المجتمع» ان كانت من بنات البيوتات ! .. ولكن هذا الحادث منذ خمسين سنة كان يبدو أخطر جدا مما نستطيع نحن أبناء هذا

العصر ان نتصور .. وقد زاد من خطورته ان «الهاربة» كانت من هذا البيت العريق، ذى الأسم الدينى الذى كان الناس يحفظون أنسابه ويتبركون به .. وأن «الهارب» رجل لامع شهير، من أبرز شخصيات السياسة والمجتمع.. وقدم السيد السادات بلاغا الى النيابة يتهم فيه الشيخ على يوسف بأنه غرر بابنته.. وبحثت النيابة الموضوع فوجدت ان السيدة صفية قد بلغت سن الرشد فمن حقها شرعا ان تزوج نفسها .. وقد حضر القران عددكبير من أقارب العروس ، فليست هناك آيه شبهة يمكن ان يستنتج منها ان الشيخ على يوسف قد غرر بالسيدة صفية..

وحفظت النيابة البلاغ.

ولم يسكت السيد السادات على هذا القرار .. فرفع دعوى أمام المحكمة الشرعية يطلب فيها الحكم بابطال الزواج استنادا الى أن الشريعة تشترط لصحة الزواج وجود تكافؤ بين الزوجين فى الاسلام والنسب والمال والحرفة !... وقال السيد السادات انه يطعن فى كفاءة على يوسف لابنته من ناحيتين: النسب، والحرفة! .. فالشيخ على يوسف من ناحية النسب لاينتسب الى نسب رفيع كالسادات ..وهو من ناحية الحرفة يحترف «مهنة الجرائد» التى هى ـ كما قال فى صحيفة دعواه ـ «أحقر الحرف.. وعار وشنار عليه!!»

وأحيلت القضيه الى محكمة قاضيها اسمه الشيخ أبو خطوة، وتحددت لنظرها جلسة يوم ٢٥ يوليو سنة ١٩٠٤.

وفى هذه الاثناء كان الرأى العام كله قد انقسم الى معسكرين متخاصمين:

ـ فريق يدافع عن الشيخ على يوسف .. اغلبه من المثقفين والمستنيرين الذين رأوا أن ماصنعه على يوسف لاغبار عليه. وأنه كفء لابنة السادات

فعلا.. فضلا عن أصدقائه وأنصاره السياسين، وعلى رأسهم الخديوى عباس حلمى نفسه. فقدكان على يوسف صديقا شخصيا له، مدافعا دائما عنه..

ـ وفريق يهاجم الشيخ على يوسف .. ويتكون من أغلبية الرأى العام، ويضم ألوانا مختلفة من الناس.. يضم الجامدين الذين يؤمنون بالأخلاق القديمة كلها.. بأن الحسب والنسب شئ مقدس لايرقى إليه العصاميون! وان الوارث الغنى لو كان عاطلا أشرف وأرفع من الفقير الذى ارتفع بنفسه ! .. ويضم كل الذين يستغلون الجهل السائد من مشايخ الطرق ومشعوذى الاديان..ويضم أيضا كل خصوم الشيخ على يوسف السياسيين الذى لم يجدوا فى قضية الزواج الا مناسبة للتشهير به والطعن عليه .. فتسابقت الصحف المعادية تكيل له أقذع التهم، وتعيره بأصله الحقير وفقره القديم وزواجه الحرام!

وأصبحت القضية التى يختلف فيها الناس ويتجادلون حولها فى الصحف والمنتديات والمقاهى والبيوت هى : هل يحق لمثل هذا الرجل العصامى، العظيم بنفسه لابنسبه ان يتزوج بنت الأشراف ذات الحسب والنسب؟..

وكتب على يوسف فى صدر جريدته مقالا روى فيه القصة كلها..ثم تحدث عن اتهامه بأنه غير كفء لزوجته، فقال مخاطبا أباها السيد السادات: اما «الشرف» فبالطريقة التى يمكنك بها ان تثبته لنفسك نستطيع نحن ، وأما الثروة فبالطريقة التى تتوصل بها إلى بيان بسطة مالك نتوصل نحن ، واما الحرفة فكلانا عضو فى الجمعية العمومية، أنا من قبل الأمة وأنت من قبل الحكومة . والأمة أصل والحكومة فرع. وأما كونى صاحب جريدة فانى أترك شرف هذه الحرفة للسان الدفاع ،... وويل ثم وويل للصحافة إن أصابها سهم القضاء بشر!..

وفى اليوم الموعود انعقدت الجلسة، وازدحمت القاعة ازدحاما لم تعرف المحاكم الشرعية له مثيلا قط.. ومثل السيد السادات «الشيخ الفندى» وقام حسن بك صبرى بالدفاع عن الشيخ على يوسف والشيخ عز العرب عن السيدة صفية.

وكان الشيخ أبو خطوة معروفا بتزمته الشديد.. فكان اتجاهه واضحا ضد الشيخ على يوسف .. وفى الجلسة الأولى حكم ـ مبدئيا ـ بتسليم السيدة صفية الى أبيها لمنع المخالطة الزوجية حتى يفصل نهائيا فى الدعوى!

ووافق على يوسف على ان تعود زوجته إلى بيت أبيها. ولكن السيدة صفية رفضت ذلك رفضا قاطعا. واعلنت انها إذا عادت الى بيت أبيها فسوف تتعرض لأذاه الشديد، لذلك فهى لن تبرح بيت زوجها مهما كانت النتائج . وبعد مفاوضات طويلة ، اهتدى الشيخ على يوسف الى حل يوفق به بين قرار المحكمة واصرار زوجته ، فاتفق معها على أن تترك بيت الزوجية وتذهب الى بيت رجل« محايد» مؤتمن. وخيرها بين بيت الشيخ أبى خطوة قاضى المحكمة نفسه وبين بيت مفتى الديار المصرية الشيخ النواوى ، أوبيت عالم جليل معروف بحسن السمعة هوالشيخ الرافعى .. فاختارت الاخير، وانتقلت فعلا الى بيته وأرسلت الى المحكمة خطابا بذلك .

وعقدت الجلسة الثانية: وإذا بالشيخ أبى خطوة يعلن أنه لايعتبر هذا الحل تنفيذا لقرار المحكمة ـ ويقرر إيقاف القضية ، واضرابه عن نظر الدعوى او أى قضية اخرى فى المحكمة حتى ينفذ حكم القاضى بارسال السيدة صفية الى بيت ابيها ولو بالقوة، وتلك ـ فيما أعلم ـ هى أول مرة «وآخر مرة» يعلن فيها أحد القضاة ا لاضراب!

وكان الشيخ على يوسف لايرى زوجته بعد ان ذهبت الى بيت الشيخ الرافعى، فارسل لها خطاباً يحاول اقناعها بالرضوخ لحكم المحكمة، هذا نصه:

«الساعة ١٠ صباحا ـ ٢٨ الجارى»

قرينتى المحترمة

بعثت لفضيلة مولانا الشيخ الرافعى ابدى له الرأى الذى عولت عليه وهو أن تذهبى الى بيت والدك مختارة ، حلا للاشكال القائم الآن بين الحكومة والمحكمة ، وإذا كان فضيلة الاستاذ يتكرم بايصالك الى بيت أبيك وأخذ التعهد اللازم عليه أن لايصيبك مكروه، فعندك كفالة قوية أرجو أن تعتمدى عليها، وتنفذى هذا الرأى الذى أراه خير حل موفق لشرفنا .. ولمصلحة النظام العام.

واقبلى فائق الاحترام من زوجك المخلص

على يوسف

ولكنها رفضت أيضاً..

وأعلنت أنها لن تذهب الى بيت أبيها الا على أسنة الرماح!

وتحرج الموقف جدا.. وتوقف العمل فى الأداة الحكومية كلها تبحث عن حل لهذا المأزق.

فالقاضى مضرب عن العمل بتاتا حتى تذهب قوة مسلحة تنتزع السيدة قسرا وتحملها الى بيت أبيها..

والخديوى عباس حلمى ـ صديق على يوسف ـ ضيق بهذه المحنة التى وقع فيها صاحبه

والرأي العام الذى كان متجها ضد على يوسف بقوة بدأ يتردد . فانه لايستسيغ أبدا أن تعامل سيدة محترمة على هذا النحو المهين، وأن تنقل فى سيارت البوليس قسرا وتنتزع من خدرها انتزاعا..

والصحف المعادية للشيخ على يوسف ـ من جهة أخرى ـ لا تكف عن التشهير به.. كانت تتحدث ساخرة عن الغرام الذى ذهب بلب الشيخ ..

والهوى الذى يمزقه .. وتنشر أخبارا مؤداها ان على يوسف يتسلل الى بيت الشيخ الرافعى - حيث توجد السيدة صفية - كل يوم عند منتصف الليل، ويخرج قبل ان يبزغ الفجر!!

أما الحقيقة فهى ان على يوسف وصفية السادات كانا يتبادلان الرسائل عن طريق خادمة اوروبية تتردد بينهما .. رسائل عاطفية حارة.. ثار لها الشيخ الرافعى الذى تنزل السيدة صفية عنده . واعتبر هذه الرسائل نوعا من الاتصال المنهى عنه . فأمر الخادمة الاوروبية بان لا تعود!

وتوالت الاجتماعات فى وزارة «الحقانية» بين الوزير ووكيل الوزارة (*) وكبار رجال القضاء الشرعى .. واحتاج الأمر الى ضغط كبير حتى اقتنع الشيخ أبو خطوة بأن يعدل عن اضرابه وان يمضى فى نظر الموضوع.

وأى موضوع ؟ ... انها مناظرة هائلة بين نوعين من الناس: رجل ورث عن آبائه مجدا ومالا.. ورجل فقير ارتفع من غمار الناس وصنع لنفسه مجدا وشرفا..

وكان على السادات لكى يكسب القضية ان يثبت شيئين:

الأول : ان نسب على يوسف لا يوازى نسبه

الثانى : ان الحرفة التى يتعيش منها غير شريفة!

وبدأت القضية باستجواب الشهود.

وجاء محامى السادات بعشرات من عامة الناس شهودا.. يسأل الواحد منهم امام المحكمة:

ماهو نسب السادات ؟

فيرد الشاهد.. هو فلان ابن فلان حتى يصل الى محمد بن ادريس بن

* كان وزير الحقانية فى وزارة مصطفى باشا فهمى هو ابراهيم فؤاد باشا ..وقد استمرت وزارة مصطفى باشا فهمى ما يقرب من ١٣ سنة(١٨٩٥م - ١٩٠٨م)

عبدالله بن الحسين بن فاطمة بنت الرسول(صلى الله عليه وسلم) زوج على ابن أبى طالب كرم الله وجهه..

ويسأله القاضى: ولماذا تحفظ هذا النسب الطويل؟

فيجيب : للتبرك به !

ويسأله أخيرا : ماهونسب على يوسف؟

فيرد : لا أعرف!

ثم جاء محامى السادات أيضاً بشهود آخرين من الموظفين الذين عملوا فى «بلصفورة» مسقط رأس على يوسف ، يشهدون بأن أسرة على يوسف هناك فقيرة، وأن أبوه كان لايملك شيئا..

وكان القاضى يسأل الشهود أسئلة من هذا النوع بالحرف الواحد:

-هل بيت يوسف له ما لبيت السادات من العلم. والمكارم؟

-لا!..

هل اصول العلم والتقوى فى بيت يوسف قديمة؟

- لا!.

وقال احد اشهود : انه أدرك ان على يوسف من أصل «و ضيع »حين رآه يوما يقف فى احد المطابع يصحح ديوانا من الشعر من تأليفه.. اذ لايفعل ذلك إلا «عديمى الأصل»!

الى هذا الحد كان السواد الأعظم من الناس يعرفون كرامة الأصل ولايعرفون كرامة العمل.. ثم وقف محامى السادات يترافع..

قال : ان نسب موكله يرجع الى أكثر من ألف سنة .. فى حين ان الشيخ على يوسف «أعجمى»! ليس له نسب معروف فى الاسلام إلا «يوسف » فقط.. اى أبوه ! وهو قد نشأ فى قرية «حقيرة جدا تدعى بلصفورة كل أهلها أعاجم!!»

ثم تطرف المحامى فقال ان القاعدة ان سكان مصر كلهم أعاجم ماعدا الأسر القليلة جدا المعروفة النسب مثل: الوفائية والسادات والبكرى !

ثم انتقل المحامى الى حرفة على يوسف . فقارن بين موكله المحترم الذى يعيش على أملاك واسعة تركها له اباؤه الأماجد (وهذه الفاظ المحامى) وبين الشيخ على يوسف الذى يضطر الى العمل لكسب رزقه ! ويحترف مهنة حقيرة هى .. الصحافة!

ثم أفتى المحامى بأن «حرفة الصحافة فى ذاتها دنيئةويحرمها الدين الأسلامى!» لماذا؟

لانها تقوم على الجاسوسية والاشاعة وكشف الأسرار، وهذا منهى عنه شرعا!»وبعد ذلك نهض محامى على يوسف يرد الهجوم، ويفند هذه الأقوال .. على ان الدفاع الأهم كان خارج المحكمة . كان الناس يطالعونه فى المقالات التى يكتبها على يوسف بنفسه فى صدر المؤيد كل يوم، وطوال أيام المحاكمة. وكان من ردوده البارعة على قول محامى السادات أن الصحافة محرمة شرعا . قوله «لقد فات حضرة المحامى ان جميع حضرات القضاة .. من فضيلة القاضى الأكبر الى القاضى الذى ينظر هذه القضية .. مشتركون فى المؤيد وغير المؤيد من الصحف ويدفعون قيمة الاشتراك سنويا. فلو صح انها دنيئة وان كسبها حرام لكانوا جميعا آثمين لآنهم مشاركون لاصحاب الجرائد باشتراكهم فيها!»

وقد عاد الشيخ ابو خطوة اثناء المحاكمة فأرسل الى الشيخ الرافعى الذى تنزل عنده السيدة صفية خطابا قال فيه: « ان الحيلولة الشرعية تتحقق بمنع المخالطة الجسمية والكتابية والشفهية وغيرها(أى انه محرم على الشيخ على يوسف ان يكتب لها رسالة!) ولكن ما أشيع على الألسنة من ان الشيخ على يوسف يتردد الى منزلكم كل ليلة سحرا ويذهب صباحا ومن وجود

طباخ يطبخ في بيتكم على نفقته ومن تكرارحضور الملبوسات من بيته كل يوم وعودها وأمثال ذلك مما يوجب شدة الأسف!»

.. وثار الشيخ الرافعي واعتبر هذه الرسالة إهانة .. وارسل الى مفتى الديار المصرية يطلب منه ان يتسلم السيدة صفية منه لولا ان عاد مفتى الديار فاسترضاه!

وانتهت المحاكمة..

واعتكف الشيخ ابو خطوة خمسة عشر يوما يحضر للحكم. خمسة عشر يوما فى مكان لايعرفه احد.. وفى خلال هذه الفترة بذلت الحكومة وبذل الخديوى عباس حلمي جهودا جبارة للتأثير على الشيخ أبى خطوة كى يجيء حكمه لصالح على يوسف..

ولكنه كان معتزا باستقلاله، متمسكا برأيه الى اقصى الحدود..

وأصدر الشيخ أبو خطوة أخيرا حكمه..

وإذا به يحكم بفسخ عقد الزواج والتفريق بين الزوجين! وإذا به يؤكد فى حكمه كل ماذهب إليه السادات، في لهجة قاسية جدا .. بل أنه أضاف الى دفاع السادات شيئا طريفا. فقد رأى أن ثراء على يوسف الحالى لا يمحو عنه تلك الوصمة: انه كان فقيرا ذات يوم!

فقال فى حكمه بالحرف الواحد:« ان فقره فى بدئه وان زال عنه الآن باكتساب الغنى، إلاأن عاره لايزول عنه!!»

وكتب الشيخ على يوسف تعليقا حزينا على الحكم فى جريدته، قال فيه:

«نشرنا الحكم الصادر اليوم فى القضية وتركنا لحضرات القراء رأيهم فى موضوعه وأسلوبه.

أما نحن فلم يؤثر علينا ما فى لهجته الشديدة بشئ ما، وإذ أمامنا

الأستئناف، وفى اعتقادنا انه سينصفنا وحينئذ يصبح حكم حضرة القاضى أشبه بمقالة .. من جملة المقالات التى قرأناها فى بعض الصحف ونسيناها!»

وفى محكمة الاستئناف قرأ محامى على يوسف قول أبى خطوة ان الثراء اللاحق لا يمحو عن صاحبه وصمة الفقر السابقة .. ثم صرخ من أعماقه:

«أين هى النصوص التى تقول ان الفقر السابق يبقى عاره على صاحبه مهما نال بعد ذلك من الغنى والمال والجاه.؟ ان القائل بذلك يريد أن يسجل الانحطاط على الجنس البشرى كله.. لان الأصل فى الانسان الفقر، والغنى طارئ عليه، واساس الغنى الجد والعمل، ولوعلم الانسان الفقير الذى توفرت فى غريزته بواعث الهمة، وانبعثت نفسه للعمل، ان عار فقره سيبقى له ولأولاده من بعده وصمة يعير بها حتى من ا لكسالى الخاملين ممن رزقهم الله ميراثا اوجريت عليهم صدقات وقف قديم .. ماانبعثت نفسه لعمل كبير!»

..وذهبت هذه الصيحات بدورها أدراج الرياح.. وجاء حكم محكمة الإستئناف مؤيدا الحكم الأول..

إلى هنا وانسحبت القضية من على المسرح.. لتبقى ذيولها خلف الكواليس.. فبعد أن صدر الحكم على هذا النحو وشعر السيد السادات بأن كرامته قد ردت إليه .. إتصلت المساعى والوساطات بينه وبين الشيخ على يوسف .. حتى رضى السيد السادات بأن تتزوج إبنته صفية من الشيخ على يوسف بعقد جديد!..

.. وتم الزواج فعلا

.. وعادت السيدة صفية إلى بيت زوجها!

والغريب فى الأمر هو تأثير هذه القضية على نفسية الشيخ على يوسف بعد ذلك..

فبالرغم من أن زواجه الجديد من السيدة صفية كان تفنيدا كافيا لكل ما قيل عن كفاءة النسب والحرفة إلا أن الجرح الذى أصابه من هذه القضية لم يندمل قط.. فبعد أن حمل رتبة الباشوية.. وأصبحت جريدته أكبر جريدة عربية.. وأصبح رئيسا لحزب من الأحزاب الثلاثة الموجودة فى مصر.. ظل يسعى دائباً ليسجل أسمه فى سجل الأشراف ولينسب نفسه إلى هذا النسب الذى استكبر عليه مرة.. ولم يهدأ حتى ظفر بهذا الأمل الغريب، بعد ثمانى سنوات من القضية.. ورضى أن يعتزل حياة الصحافة والسياسة التى كللته بالغار.. ليعين شيخاً للسادة الوفائية.. لأن هذا التعيين يجعله ندا لزوجته.. ولاسرتها التى رفضت يوما أن تصاهره!!

وليس غريباً وهو يطوى فى نفسه هذه العقدة أن تعرف أنه لم يكن موفقاً أبداً فى حياته الزوجية مع السيدة صفية، وأنها كانت دائمة التنغيص له تنغيصاً جعله فى سن الكهولة يرابط فى مكتبه بالجريدة عشرين ساعة متوالية فى اليوم، فراراً من البيت.. ولما مات عام ١٩١٣ كانت زوجته ما تزال شابة، فعاشت بعده ما يقرب من ثلاثين سنة.. وأحبت الممثل زكى عكاشة وتزوجته!!

.. ونستطيع أن نفهم من ذلك أن الشيخ على يوسف كان فى حقيقته رجعياً، وأن قلت رجعيته عن الآخرين، وكان فى قرارة نفسه يؤمن بكل ما ساقه خصومه ضده من حجج الحسب والنسب والحرفة.. وهى رجعية ألقت بظلها على الكثير جدا من نواحى تفكيره السياسى.. فكان إذا ثار شعب ليبيا مثلا على الغزو الإيطالى كتب المقالات الرائعة مدافعاً عن شعب ليبيا، داعيا إلى التطوع ضد إيطاليا، فاتحا أبواب الإكتتاب لإرسال المعونة الطبية إلى المجاهدين.. فإذا ثار شعب اليونان على الإستعمار التركى هاجم شعب اليونان وندد بالثائرين فى وجه الأتراك.. ربما لمجرد أنهم « يونان »!..

ومع ذلك فإن هذه القضية قد لعبت دورا باهرا حين هزت الناس من الأعماق.. وكان الجدل الذى أحاط بها مدرسة فتحت عيون الرأى العام ودفعته إلى إعادة التفكير فى الكثير مما كان يؤمن به من قديم..

وقد نضج إهتزاز الناس فى قصيدة كتبها الشاعر حافظ إبراهيم يسجل فيها حزنه وسخطه، مخاطبا مصر:

حطمت اليراع فلا تعجبى ... وعفت البيان فلا تغضبى
فما أنت يا مصر دار الأديب ... ولا أنت بالبلد الطيب!

....

وقالوا «المؤيد» فى غمرة ... رماه بها الطمع الأشعبى
دعاه الغرام بسن الكهول ... فجن جنونا ببنت النبى
فنادى رجال باسقاطه ... وقالوا تلون فى المشرب
وزكى«أبو خطوة» أقوالهم ... بحكم أشد من المضرب
فيا أمة ضاق عن وصفها ... جنان المفوه والأخطب
تضيع الحقيقة ما بيننا ... ويصلى البرىء مع المذنب
ويهضم فينا الإمام الحكيم ... ويكرم فينا الجهول الغبى!!




الدوبليرة !

يتلقى المخرج المشهور مجدى الروبى برقية من القاهرة تقع فوق رأسه كالصاعقة..

تقول البرقية:

أحضر فورا.. جدك توفى

دكتور حامد

وتدور الدنيا أمام مجدى

فهو الوريث الوحيد لجده الحاج خلف الله الروبى المزارع الثرى صاحب الأراضى والحدائق والعقارات.

ويقرر مجدى قطع العمل فى الفيلم الذى يصور مشاهده الخارجية فى اليونان والعودة فورا الى القاهرة..

ويصرخ فى العاملين فجأة بعصبية شديدة وغريبة عليه:

ستوب!

ويهرع اليه مساعده سعيد سعادة بعد أن لاحظ تغيره فجأة ويخبره مجدى فى كلمات قصيرة بالخبر ويترك له مهمة تحضير المشاهد المتبقية حتى يعود مجدى من القاهرة.

وتلعب الأحلام داخل رأس سعيد ..

فها هى الفرصة التى عاش يحلم بها تأتى إليه دون أن يتوقعها وبأسرع مما كان يتصور .. سيفاجئ مجدى عند عودته بأنه إنتهى بالفعل من تصوير المشاهد الباقية.. وسيعرف مجدى حجم سعيد الحقيقى.. وسيثبت له سعيد ولكل الكاست العامل فى الفيلم أنه لن يعيش حياته مجرد مساعد مخرج وأنه آن الآوان ليصبح مخرجاً.. ومخرجاً كبيراً يشار إليه ويجرى خلفه

المنتجون وتتمنى أحلى البطلات أن يخرج لها فيلما يضع أمكانياته الفنية التي يحملها داخله.

لكنه عندما يشرع في الخطوة الأولى لتحقيق حلمه الكبير تتعقد الأمور بين يديه وينقلب الفيلم الى كوميديا مسخرة يضحك عليه وعليها كل العاملين في الفيلم حتى العمال والفنيين لكن سعيد لا يستسلم.. فهو عبقرى - هكذا يقول لنفسه - والعباقرة لا يفهمهم بسهولة أمثال هؤلاء الحمقى!!

ويصل مجدى الى القاهرة فى حالة من القلق والحزن وينطلق على الفور إلى البلد بالقرب من الإسكندرية، لكن عندما يقترب منها لا يحس أى مظهر من مظاهر الحداد أو الحزن.. وتزداد شكوكه عندما يدخل البلد.. فلا سرادق للعزاء وتحية أهل البلد له فيها مودة وتحمل معانى الترحيب العادى بعودة مسافر ولا تنم أبداً عن أى مظهر من مظاهر المشاركة فى الحزن..

ماذا حدث؟

يسأل مجدى نفسه ويساوره الخوف من أن يكون قد وصل متأخراً فهو لم يدقق فى تاريخ البرقية..

أم لعلها دعابة سخيفة من صديق سخيف..

وتزداد مخاوفه من مشاكل ما بعد الوفاة وإثبات الميراث واحتمال ضياع الأوراق أو ظهور وريث من بعيد.

ولكن مقابلة الدكتور حامد القشلان له على سلم السراية تقطع عليه حبل وساوسه..

يستقبله الدكتور حامد القشلان بابتسامته الودودة التى يعرفها منذ كان الدكتور حامد حكيمباشى الوحدة الصحية فى بلدهم.. وعلى امتداد عمره وصداقته لجده التى امتدت من طفولة الاثنين معاً فى كتاب واحد ومدرسة

الزامية واحدة حتى الإبتدائية وأوائل الثانوى عندما ترك جده الدراسة - هكذا سمع منه أكثر من مرة - ليتفرغ للإرض بينما استمر حامد فى دراسته حتى تخرج طبيباً استقر به المقام فى البلد..

ويفهم مجدى من الدكتور حامد أن جده مازال حيا يرزق وان كان المرض والوحدة قد تركا عليه آثارهما حتى الزماه الفراش فى الفترة الأخيرة..

ويسأل مجدى فى عصبية بادية عن سر البرقية التى تلقاها فى اليونان عن وفاة الحاج خلف الله..

ويهز الدكتور حامد رأسه ويشير بيديه أن تلك هى أوامر الحاج خلف الله نفسه!!

صحيح أنه أشترك فى التدبير لكن القرار كان دائما للحاج خلف الله..

ويوضح الدكتور حامد لمجدى المبررات التى دفعتهما إلى هذا بعد أن اتفقا على أن إرسال برقية بهذه الصيغة- التى لاشك أرعبت مجدى- هو الوسيلة الوحيدة والمؤكدة لتأتى به على «ملا وشه».. وهو ما حدث بالفعل!!

يراقب هذا كله بعينيه المندهشتين وفمه المفتوح «لقمة»..وهو شخص لاتستطيع تحديد سنه. عاش عمره فى سراية الروبى ولايعرف لنفسه مكاناً غيرها.. كان أبوه يعمل فى نفس السراية .. الجميع عاشوا فى خير الروبى لذلك فهو يعتبر نفسه فرداً فى الأسرة، وقد يتجاوز حدوده بناء على احساسه هذا لكن لاأحد يغضب منه..وهو لا يغضب من أحد مهما زجروه أو عنفوه أو حتى أهانوه فابتسامته دائماً موجودة لاتفارقه. يحزن ويبتسم .. ويغضب ويبتسم..

ولأنه كان لابدأن يتدخل فى أمر يعتبره يخصه أيضاً مثلما يخصهم لهذا يصرخ فى وجه مجدى دون تفكير:

ـ وانت مالك إنت؟!

لكنه يتراجع بسرعة عندما يتذكر ان مجدى هذا هو حفيد الروبى وأنه المخرج الذى يعلق عليه لقمة آمالا كبيرة فى أن يكتشفه مجدى ليعمل فى السنيما والتليفزيون مثل أحمد زكى ونور الشريف. يسكت لقمة ويتحول الى الترحيب المفاجىء بمجدى بيه الذى نوّر البلد

ويكاد مجدى ينفلق من الغيظ!!

لكن نظرة الدكتور حامد تسكته.. فما ذنبه وهو منفذ لأوامر جده الحاج خلف الله الذى لا يجرؤ انسان على مناقشة قرار له فما بالك بمحاولة تغيير القرار!!

ويبتسم مجدى لمنطق الشيوخ..

صحيح .. فعشرات الرسائل والتليفونات لم تفلح فى إخراجه من دوامة مشاغله حتى أتت هذه البرقية لتنتزعه إنتزاعاً من هذه الدوامة..

وتشهد غرفة نوم الحاج خلف الله الروبى لقاءً حاراً ومؤثراً بين الروبى الكبير والروبى الصغير ..

ولا يخلو لقاء مثل هذا من بعض اللوم والتوبيخ من جانب الجد ومحاولات الإستعطاف والمسكنة والإعتذار من جانب الحفيد حتى يرضى الحاج خلف الله فى نهاية المطاف عن حفيده لكنه يفاجئه بسؤال لم يتوقعه مجدى مطلقاً..

ـ فين ياوله خطيبتك اللى ح تبقى مراتك على سنة الله ورسوله؟.. أنى ماشفتهاش لحد دى الوقت..

ويسقط في يد مجدى..

فخطيبته .. أو مشروع خطيبته قد تركها هناك في اليونان في أوتيل الجليفادا فهي تلازمه هناك في الفترة الأخيرة التي صادفت زيارتها لشقيقها المقيم في اثينا ..

يقول مجدى على الفور غير مدرك لاعماق الورطة التي يلقى بنفسه فيها..

– موجودة يا جدى .. تشوفها حضرتك في أى وقت تحب.

– أيوه نحب!

يقولها لقمة الذى يجلس متربعاً على الأرض يتابع الحوار فى شغف شديد لايفارق غرفة الجد الذى لايستغنى عنه فهو ذراعه اليمنى. يناوله كوب ماء أو يبحث له عن النظارة الطبية والجريدة اوعلبة سجائره..

لكن الجد يزجره بقسوة.

– اخرس إنت خالص يالقمة. جك لقمة تسد زورك

– حاضر ياسى الحاج

لكنه يواصل متابعة الحوار فى شغف لايفتر

ويبتسم مجدى متصورا أنه أنهى بكلمته هذه الموضوع..

لكن الجد يرد بحسم

– الليلة!!

– أيوه الليلة

يقولها لقمة لكنه يحس أنه تجاوز حدود ه فينهض مسرعاً ليجرى خارجاً من الغرفة أمام نظرات الحاج خلف الله الروبى ومجدى قبل أن يفكر

أحدهما فى ضـربه وهـو ما لا يحتـمله وهو الذى سيعمل نجماً فى السينما!!

ويفاجأ مجدى مرة ثانية.

- الليلة إيه يا جدى؟!

- الليلة أشوفها.. موش بتقول فى أى وقت؟ .. خلاص .. أشوفها الليلة.

- الليلة يا جدى؟ .. الليلة ؟! موش ممكن.. موش ممكن أبداً عشان..

ويكاد مجدى ينزلق بلسانه ويقول لجده انها فى اليونان ليشعل فى البيت حريقاً.. فمثل الحاج خلف الله الفلاح المحافظ لا يوافق مطلقاً.. بل ولا حتى يتصور مجرد تصور أن فتاة مهما تكن يمكن أن تسافر وحدها مع غريب وتقيم معه فى الغربة وتلتقى به يوميا ويخرجان معاً قبل أن يربطهما عقد الزواج.

ويسأل الجد مندهشاً:

- موش ممكن ليه يا فنان؟!

ويرد مجدى بدون تفكير:

- عشان فى الجليفادا يا جدى!

يستغرب الجد الكلمة فيسأل:

- فين .. قلت لى فين؟

ويستدرك مجدى فيقول مصححاً خطأه:

- فى الجبلاية يا جدى.. فى شارع الجبلاية يعنى.. ويرتاح الجد.

ولايبتعد لقمة كثيراً ليكون رهن اشارة الحاج .فهويخرج من الغرفة صحيح. لكنه يقف وراء الباب الموارب والكلام يصل إليه.. ويسمع كلمة الجبلاية فيقول لنفسه مستغربا:

- جـلاية إيـه ياخـويا.. لاهوّ حيتجـوز قـردة مـن جبلاية القرود؟! آني مالي!!

- آه .. قلت لي.

ويضيف مجدى ملطفاً الجو.

- والله يا جدى دى حتى نفسها تشوفك قوى.. ما تتصورش يا جدى حبتك قد إيه من الكلام اللى سمعته عن حضرتك. وتتسع إبتسامة الجد فتنفتح شهية مجدى للمضى فى الإستطرادات التى ترضى الحاج خلف الله.

- بس يا خسارة يا جدى.. أنا جيت فجأة فهى يعنى ماعندهاش أى خبر بالزيارة دى والله..

وكأنما عثر الجد على الحل يشرق وجهه قائلاً:

- طب ما تشد لها تليفون من هنا تيجى دوغرى.. أو إذا كنت عاوز نبعت لها من حدانا عربية بسواق لحد دارها تجيبها وتيجى.. ويضيف متفاخرا وابتسامة الرضى على وجهه لم تفارقه بعد.

- إحنا شوية يا وله والا إيه.. إصحى يا وله إنت بتكلم الروبى الكبير..

يرد مجدى مرتبكا وسعيدا فى نفس الوقت فقد القى إليه الحاج خلف الله طوق النجاة دون أن يدرى.

- طبعاً .. طبعاً يا جدى .. ح أكلمها حالاً..

ويقول وهو ينهض من فوق حافة فراش جده.

- ما تتصـورش دى حـتفرح قد إيه.. باى باى يا جدى بقه .. باى باى..

ويرى مجدى الفرصة سانحة للخروج من هذا المأزق فلا ينبغى أن يضيعها.. لهذا يجرى من غرفته مكالمة عاجلة مع صديقة الريجيسير «الأستاذ فهمى شوية» وهو أسم شهرته وهو الريجى الذى يعمل مع مجدى الروبى فى كل أفلامه وتكاد علاقتهما تتجاوز قليلا حدود العمل إلى شكل من الصداقة التى تحكمها الظروف.. فهو أحيانا فهمى.. هكذا حاف.. وهو أحياناً أخرى الأستاذ فهمى.. كذلك الحال مع مجدى الروبى فهو مجدى أو أبو الأمجاد وأحياناً مجدى باشا أو الأستاذ مجدى تبعاً لظروف العمل ومزاج المخرج الكبير..

ويطلب مجدى من فهمى أن يرسل إليه على الفور فتاة من الكومبارس يختارها بعناية..

ويؤكد عليه:

- تختارها بنفسك يا فهمى ما تكسفناش

ويشترط مجدى فيها أن تكون حسنة المظهر مقبولة الشكل .. والأفضل طبعاً أن تكون جميلة .. عاقلة .. مثقفة أو تشى ملامحها بهذا.. ويستحسن أن تبدو أقرب فى شكلها إلى الطبيبات أو المحاميات أو الجامعيات بشكل عام..

- يبان عليها دكتورة يا فهمى.. فاهمنى يا فهمى.. وتقول لها ما تكلمش مخلوق لحد ما أشوفها.. ما تنطقش بكلمة لبنى آدم إلا أما تقابلنى.. فاهمنى يا فهمى؟!

- فاهمك يا أستاذ .. بس ليه؟

- كده يا فهمى .. مش شغلك.. ما تسألنيش..

وتقفز إلى ذهن مجدى فجأة صورة إحدى فتيات الكومبارس بالتحديد ويرى إنها أصلحن للمهمة التى أختارها لها فيقول.

- فهمى .. أسمع .. فاكر البنت دى إلى كانت معانا فى فيلم بنات الجامعة.

- أنهى يا أستاذ ما هم كثير.

- دى يا فهمى اللى كانت دايما لابسة النضارة وقنزوحة فى نفسها كده ولا أستاذة جامعة.

- آه ..آه أفتكرتها.. دى أحلام يا أستاذ.. بس دى يا أستاذ لا مؤاخذه يعنى دمها واقف قوى ماتنفعكش.

- إنت مالك يا فهمى.. إنت تسمع الكلام وبس..

- ما هو بس لو أعرف حضرتك عايزها فى أيه ؟!

وكأنما يلمح فهمى الى شىء فينهره مجدى على الفور

- فهمى .. اسمع أنت تعمل اللى باقول لك عليه وبس.. مفهموم؟

- طب سؤال أخير يا استاذ مجدى عشان خاطر فهمى معلهش .. هو لا مؤاخذة حضرتك بتصور فيلم فى البلد وإلا حاجة؟!

- فهمى .. للمرة الأخيرة باقول لك موش شغلك .. العربية ح تكون قدام المكتب الساعة ٤ بالظبط يا فهمى .. تكون البنت جاهزة ولابسه شيك وزى مافهمتك .. فاهمنى يا فهمى؟!

- فاهمك يا أستاذ

يقولها فهمى صاغراً.. ويضع السماعة وهو يلعن الزمن الذى يجهل قدر أستاذ مثله تخرج من تحت يديه معظم نجوم السينما فى مصر ويعترف بفضله - اللهم إلا الجاحدون - كثير من نجوم الصف الأول الآن.. وأن كان العشم بينهم وبينه قد يتجاوز حدود اللياقة ويخرج إلى التريقة التى قد تسبب له بعض المضايقات أحيانا..

ويردد فهمي لنفسه « فاهمني يا فهمي.. فاهمك يا أستاذ .. فاهمني يا فهمي ؟!»

ويقول فهمي ساخطاً بصوت مسموع.

– فاهم إيه بس .. هو ده كلام يتفهم.. والله ما انت فاهم حاجة يا فهمي.. ولا حتفهم حاجة طول عمرك طول ما أنت بتشتغل مع العالم دى.. فنانين بصحيح!!

فى الطريق إلى العزبة تسترخى « أحلام» داخل صالون السيارة الكبيرة وتبدأ تحلم.. ويحملها حلمها بعيداً .. بعيداً..

وتسأل نفسها:

لماذا أنا بالذات؟! هل يكون القدر قد شاء أن يعطيها فرصة عمرها لتلتقى مع المخرج الكبير الذى ظلت تراقبه عن بعد فى أكثر من عمل اتاح لها حظها أن يتولى هو اخراجه ولم يكن دورها يسمح لها أن تقدم نفسها كفنانة أو يتيح لها الفرصة لتظهر إمكانياتها الفنية أمامه.. عملها مع الكومبارس لا يسمح لها بأكثر من تلقى الأوامر من مساعد المخرج دون مناقشة.. ستلتقى به إذن.. هكذا .

.. هكذا تقول لنفسها..و هى لا تعرف بالتحديد حجم الدور أو طبيعته أو ملامح الشخصية التى أختارها لها.. حتى الأستاذ فهمى لم يطفىء نارها لمعرفة أى شىء عن الدور الذى رشحها له المخرج الكبير.

وتهز كتفيها .. مجرد اختياره لها دليل على أنه رآها .. وأنها لفتت نظره وهذا يكفى .. يكفيها حتى تعرف الباقى منه.. وهى – تقول لنفسها – ليست كومبارس عادية، لكنها ظروفها التى وضعتها فى هذا الحجم فليس متاحاً الآن أمامها غيره.. فهى طالبة فى معهد التمثيل.. مثقفة تقرأ فى

السياسة والتاريخ والفن والأدب .. وتخلع نظارتها لتمسحها.. وتضعها لتواصل حوارها مع نفسها..

وفوق هذا فأحلامها كبيرة.. كبيرة لدرجة لا تتسع لها دنياها المتواضعة حاليا.. وترى نفسها نجمة كبيرة ومشهورة تكتب عنها الصحف والمجلات الفنية وتدلى باحاديث الى الراديو والتليفزيون وتناقش أدوارها مع كبار المخرجين وتناقش كبار الكتاب والسيناريست فى أبعاد الشخصية التى تلعبها ومدى انسجامها مع النسيج الدرامى للعمل .. والكل يستمع لها باهتمام فثقافتها .. ونجوميتها العريقة تعطيها هذا الحق .. وأكثر..

أما مجدى..

تفيق لنفسها لحظات.. وتبدأ تناقش لقاءها معه وتستعد له من الآن..

ستسمع منه .. وسيعرف هو كم كان مخطئا طوال فترة الاهمال الماضية لانه لم يلتفت إليها بين صفوف الكومبارس.

عموما .. لقد بدأ كل شىء يأخذ وضعه الصحيح الآن فلا مجال للشكوى ولننظر إلى الأمام .. إلى المستقبل ..

صحيح هى مجرد فتاة كومبارس الآن .. لكنها أيضا مختلفة عنهم .. وهى تعرف هذا جيدا وبقى أن يعرفه الآخرون .. وتعرف أكثر أنه سيأتى اليوم الذى تقول فيه للدنيا بعلو صوتها « أنا أحلام» .. فتلفت الدنيا لها.. تراها وتسمعها وتحس أحلام أن هذا اليوم قد بات قريبا .

سارت العربة فوق الطريق الزراعى الطويل.. وأطلت أحلام من النافذة وراحت تسلى نفسها وتقطع الوقت بالنظر إلى الطريق والبيوت التى بدت على البعد صغيرة ووديعة وأشاعت فى نفسها جواً من السلام وأبراج الحمام ومساحات الخضرة الممتدة حتى الأفق وأشاعت في نفسها جواً من السلام..

وعبرت السيارة فوق جسر صغير وانفتح أمامها الطريق إلى جوار النيل حتى دخلت بها السيارة طريقا ضيقاً بين صفين من الأشجار العالية فأحست كأنها تسير داخل نفق من اللون الأخضر تطل عليها الشمس منه لحظات وتختفى فكأنها شمس حياتها التى تريد أن تشر ق بعد طول إحتجاب..

أخيرا خرجت السيارة إلى الخلاء المكشوف فسطعت الشمس واغمضت أحلام عينيها لحظات ثم فتحتهما لتملأهما بالنور الذى غمر من حولها كل شيء..

ها هى السراية .. لابد أنها هى..

أخذتها روعة المكان.. وانبهرت أنفاسها..

لم تكن أحلام تتصور مطلقاً أنها يمكن أن ترى مثل هذا البناء الشامخ العريق الذى يدل على فخامة حقيقية فى مثل هذا المكان من الريف..

توقفت السيارة أمام السراية.. وهبط السائق يفتح لها الباب لتخطو أحلام أولى خطواتها فى مكان من الريف لا تعرفه.. على بعد خطوات منها كانت تحيط بها حلقة من النساء والأطفال ما أن أحسوا بها تهل عليهم حتى إنطلقت زغاريدهم مختلطة بزياط الأطفال وتصفيق بعض الحاضرين من الرجال فتراجعت أحلام على الفور منكمشة داخل السيارة وراحت ترقب العيون التى اقتربت تحيط بالسيارة تفحص الزائرة التى وفدت عليهم وقد امتلأت عيونهم باللهفة والفضول وبدت فيها عشرات الأسئلة التى تبحث عن إجابات لا تعرفها أحلام..

واستجمعت أحلام شجاعتها ومدت قدمها تلمس الأرض..كانت مفاجأة كاملة لها اذهلتها كلما ضاقت الحلقة من حولها..

العشرات يتخطفن يدها يقبلنها ويمسحن على ملابسها.. وعشرات الأطفال يدورون من حولها ويضحكون وينطلقون فرحين ينقلون الخبر إلى من لم يحضر من أهل لبلد..

لكن لقمة الحاضر دائماً وكأنما هو عفريت مصباح علاء الدين يظهر فجأة والحقيقة أنه كان يتابع المشهد سعيداً وهويرى بنت مصر التى حضرت لتكون عروسة سيده مجدى بيه . يتدخل لقمة لينشل أحلام من وسط الزحام ويصعد بها سلالم السراية وسط مظاهرة ترحيبه هو الخاصة وهو لايكف عن تفحص أحلام ويتصور حالها معهم وحاله هو معها ومع سيده مجدى بيه لكنه يقول لنفسه:

- وأنى مالى ياعم..آنى ح أكون فى السيما مع نورالشريف ويسرا والأستاذ عادل بيه أمام وكل الناس الحلوة بتوع مصر !!

ملأت الزغاريد أذنيها.. وسمعت أحلام من بين ما سمعت من يدعو للهانم الصغيرة بالسعادة والذرية الصالحة

الهانم الصغيرة !! ذرية صالحة؟!

فاجأها الاسم.. تعجبت له للحظات .. رددته بينها وبين نفسها ولم تلحظ أحلام فى زحمة المحيطين بها تلك العينان العجوزتان اللتان توارتا خلف ستارة شرفة الدور العلوى ترقبانها بقلب يدق بالفرحة والقلق والترقب وتحلمان باليوم الذى تكتحلان فيه برؤية الروبى الجديد واحدث سلالة الروبى .. ابن مجدى الذى سيرث كل هذه الثروة والضياع والأرض..

.. وتنهد الجد فى ارتياح..

فها هو حلمه يقترب من التحقيق.

....

أسرع الحاج خلف الله إلى فراشه يسوى نفسه فيه كشيخ مريض قد دنا أجله ولا هم له ولا أمنية يتمناها فى هذه الدنيا إلا زواج حفيده والمحافظة على أسم العائلة الكبيرة الذى سيحفظه للدنيا ابن مجدى من عروسه التى كانت فى تلك اللحظة تخطو أولى خطواتها على سلم السراية الكبير..

بينما كان الدكتور حامد القشلان إلى جوار فراش الحاج خلف الله يلقى إليه بآخر التعليمات عن أصلح الأوضاع التى تناسب شيخاً مريضاً مثل الحاج خلف الله الروبى ينتظر بفارغ الصبر زواج حفيده..

فى غرفته .. كان مجدى يقف مستندا بظهره إلى حافة المكتب.

سلم عليها فى سرعة وأشار إليها لتجلس.. أمسكت أنفاسها أمامه بصعوبة.. لاتريد أن تفلت من أذنيها حرفا مما يقول..

أول مرة تقترب منه إلى هذه الدرجة.. تكاد تحس بانفاسه فوق وجهها. صوته هادىء وطيب بينما هو يمضي مسترسلاً يتكلم .. ويتكلم.

زال عنها خوفها واحست بالإطمئنان بعض الشيء.

واستجمعت أحلام طاقتها وتحفزت.

- أيوه يا أستاذ ؟

- فهمتى يا آنسه...؟؟

- أحلام يا فندم!

- فهمتى يا آنسة أحلام؟!

عيناها معلقتان بوجهه فى إنبهار.

- أفندم؟!

- فهمتى ؟

-- أنا أسفة.. سرحت شويه.. ممكن سيادتك تشرح من تانى؟

- أشرح أيه يا مدموازيل ما أنا باشرح من الصبح.. المسألة فى غاية البساطة.. واعتبريه دور وحتاخدى أجرك عليه..

يقولها ضاحكا ليخفف من إحساسه بالخجل من طلب كهذا أمام كومبارس من العشرات.. بل المئات الذى لا يعرفهم..

- دور أيه يا أفندم.. أنا مش فاهمة حاجة..

ينفخ مجدى فى ضيق.

- حاضر يا ستى .. نقول من الأول..

تابعت كلامه حرفاً حرفاً..

كالمصدومة بدأت تفهم..

إذن .. فهذا هو الموضوع .. تورط ويريد أن يخرج من ورطته وأن تخرجه هى بالذات من هذه الورطة..

أحست كأنه داس كبرياءها كفنانة بنعل حذائه.. وشعرت أن كفا تعصر قلبها دون رحمة..

واستولى على أحلام حزن عميق غشيها فجأة..

لماذا يا ألهى تنهار أحلامى بهذه السرعة وهذه القسوة لماذا؟!

- آسفة جدا يا أستاذ!

لا تدرى كيف قالتها!

وجدت نفسها هكذا تقولها وقد وقفت أمامه متحدية مستفزة ومتحفزة..

- حضرتك بترفضى؟!

نعم .. ترفض .. وتواجهه بالرفض

نظر إليها مذهولا لا يصدق..

فتاة الكومبارس هذه التى لا يعرف أسمها ترفض؟!

صرخ فيها وأعصابه تشيط..

- آسفة يعنى ايه يا مدموازيل؟!

- يعنى آسفة يا أستاذ .. أنا ما اشتركش فى كذبة زى دى.. ذنبه ايه الراجل الطيب ده؟! .. ذنبه أنه عاوز يطمن عليك ويشوف ولادك؟! ذنبه أن كل أمله فى الدنيا أنه يحفظ اسم العيلة.. عن أذنك.

قال وأنفاسه تكاد تهرب منه:

- أنتى مالك راجل طيب ولا موش طيب.. أنت تعرفيه منين.. إنتى ح تعرفيه أحسن منى .. انتى .. انتى .. هو جدك انتى ولا جدى أنا؟!

ويضيف فى يأس:

- يا مدموازيل أفهمينى .. أرجوكى.

ويكررها وقد بدأ صوته يتراخى ويستسلم.

- أرجوكى ..

صوته يحمل رنة التوسل هذه المرة..

توقفت .

أسترخت أصابعه حول ذراعها.

- أرجوكى ..

واشار لها لتجلس .. جلست

إنحنى أمامها فى مقعده.. يقول متوسلا.. موش كذب.. أنا حقيقى نفسى أحقق له أمنيته لكن أعمل أيه .. خطيبتى فى اليونان وما كنتش أعرف أنه حيفاجئنى بالطلب الغريب ده..يعنى كنت ح أقول له أيه؟!

- أفهم .. يعنى سيادتك ناوى تتجوز فعلا؟

- أنتى ح تحققى معايا؟ .. طبعاً !! أنتى مخك تخين ليه؟!

يقولها بحرارة فيما يشبه الشخط فتبدأ فى البكاء .. فيقع مجدى فى بعض الحرج من بكائها ويقف أمامها عاجزا لا يدرى كيف يتصرف..

يردد مجدى فى سره: الله يخرب بيتك يا فهمى يا حمار

ولأن لقمة لايكف عن التجول فى السراية فأنه يسمع صرخة مجدى «ياحمار» فيندفع الى الغرفة داخلاً يسأل :

ـ بتنده يامجد ى بيه

لكنه يفاجأ بعاصفة من السباب تستقبله

ـ بره إنت كمان . أن نا قصك . بره!

فيهرول خارجاً وهو لايفهم مالذى أصاب البيه مجدى ولاماذا أغضبه من خطيبته فى أول يوم للقاء . ويخبط لقمة كفاً بكف .

ـ أيه العالم الملاحيس دى ؟ أنى مالى !

ويتلفت مجدى حوله كأنه يسمع صوت فهمى يرد ساخراً: أنا برضه اللى حمار؟!

ولا تدرى أحلام لماذا شعرت بالغيرة تتسلل إلى نفسها وروحها من هذه « الخطيبة» التى تعيش فى اليونان..

صحيح أنها لا تعرفها.. ولابد أنها الآن تسبح فى حمام سباحة بأكبر الفنادق هناك.. أو تتسكع فى شوارع أثينا أو تتنزه مع بعض أصدقائها هناك وخطيبها الأستاذ مجدى هنا غارق لشوشته فى ورطة يحاول الخروج منها بمساعدة كومبارس مثلها.. فقيرة .. وبسيطة .. ستؤدى دورها وتنصرف..

تخرج من هذه السراية ولن يذكرها أحد بعد ذلك .. بل ربما تجاهلها مجدى أيضاً لأنها ستذكره بموقف ربما لا يحب أن يتذكره..

وارتفع صوت بكائها

أحست يد مجدى فوق ظهرها تربت عليها وتطيب خاطرها.

– خلاص ..خلاص ..خلاص بقى ..معلهش ..

ثم وبصوت فيه كل الرجاء.

– هيه .. قلتى إيه؟! إذا كنتى عايزة تسعدى انسان طيب زى جدى كل أمله زى ما بتقولى أنه يشوف اسم عيلته ما بيتمسحش من الدنيا فارجوكى ما تبخليش عليه باللحظات دى.. وبعدين اوعدك .. أنا ح اتصرف .. تأكدى انى ح اتصرف صح..

لا تدرى لماذا أحست بشىء من الشفقة نحوه.. كأنه طفلها الذى يحتاج إليها لتساعده..

استمعت منه إلى آخر ملاحظاته.. وقامت معه بعد أن أتفقا على كل التفاصيل متوجهين الى غرفة جده فى الطابق الثانى من الفيللا..

من وراء الباب جاءها الصوت.

– أدخل.

دخلت ومن خلفها مجدى.

أجالت عينيها بسرعة فى الغرفة ثم تقدمت مترددة إلى الفراش حيث يرقد الجد ومجدى خلفها يشجعها بصوت مهموس..

بربش الجد فى عتمة العصارى وهم بالنهوض فى ضعف مبالغ فيه لكنه محسوب.. إلى جواره كان الدكتور حامد القشلان صديق عمره يساعده ويظهر الحزن على حال صديقه المريض المشرف على النهاية.

خرج صوت الجد واهناً متهالكاً..

- قربى منى يا بنتى أشوفك.

أقتربت أحلام من الفراش وقد اعتراها بعض الخوف من جو الموت المخيم على الغرفة قليلة الاضاءة..

أضاف الحاج خلف الله.

- تعالى جنبى هنا على السرير.

وأشار موجها كلامه إلى الدكتور القشلان الواقف إلى جواره يتابع فى شغف زائد تمثيلية صديقه العفريت القديم الحاج خلف الله وقد أنسته حبكة الموقف نفسه فانفرجت شفتاه عن إبتسامه إعجاب كبيرة باستاذية صديقه.

- قيد نور الأباجورة يا حامد.

لكن حامد الغارق حتى أذنيه فى متابعة المشهد لا يتحرك فيكرر الجد فى صوت واهن نافد الصبر:

- الأباجورة يا حامد.

- الأشابورة ياحامد!

يقولها لقمة الذى لايفوته بالطبع مشهد لقاء الجد بخطيبة حفيده مجدى لكن الدكتور حامد الذى لايسمع الجد لايسمع أيضاً الولد لقمة فيقول لقمة موجهاً كلامه للحاج خلف الله الروبى

- أنوّر آنى الأشابورة ياحاج ؟

لكن الحاج لايلتفت اليه لأنه يركز كل اهتمامه فى غيظ على الدكتور حامد السرحان.

ولا يبدو أن حامد يسمعه بالمرة فيفلت زمام الجد العصبى وينسى نفسه فيصرخ:

- الأباجورة يا أطرش.

وتقفز أحلام من فوق حافة السرير مذعورة كطائر صغير أخطأته طلقة الصياد.

ويجرى حامد إلى الأباجورة بعد أن أيقظته المفاجأة وينتبه الجد إلى خروجه عن الدور المرسوم فيعود إليه صوته الراهن.

- تعالى يا بنتى جنبى ما تخافيش .. حاكم..

ويشير إلى الدكتور حامد..

- حاكم أصل الراجل العجوز ده طول عمره مغلبنى .. ويشير إلى الأرض محاولاً الضحك

- من وهو قاآآد كده..

لكن الدكتور حامد الذى يشعر أن كرامته كادت تداس يجد أنه من الواجب عليه هنا أن ينبرى للدفاع عن نفسه أمام عروس مجدى.

- آنا يا حاج؟! أنا اللى شيلتك فوق كتافى أعدى بيك القناية يوم المطر عشان أوصلك المدرسة واغرق أنا فى الطين .. أنا يا حاج ؟! أنا اللى..

- خلاص يا حامد.. خلاص

ويضحك الحاج خلف الله.

- خلاص .. محقوق لك يا سيدى .. أبوس راسك يعنى؟

فيهدأ الدكتور حامد .. ويرضى .. ولابد أن يرضى فهو شخصية إجتماعية ودودة ومرحة إلى أبعد الحدود.. وهو كما يقول الحاج خلف الله بنفسه فى لحظات صفائه «حمال أسية صحيح» .. وقد تعلم الدكتور حامد حب الناس ومعاشرتهم من مدة خدمته الطويلة فى الريف ومخالطته

لقطاعات كبيرة من الفلاحين والبسطاء والفقراء أتاحت له الإطلاع على أسرارهم ودخائل بيوتهم.. وهو رجل يحمل بين جنبيه قلبا نزاعا للخير ميالا لمساعدة الناس فى أوقات شدتهم سواء كطبيب أو حتى كانسان فيما قد لا يدخل فى إطار عمله الرسمى والحكومى.. وهو ما قد يعتبره بعض من لا يفهمون- على حد قول الدكتور نفسه- تطفلا من رجل حشرى .. وحكايات الدكتور حامد لا تنتهى عن زمان وناس زمان والوحدات الصحية والمرضى.. ولا يمل سامعوه منها فهو رجل يعرف كيف يحكى..

ولأنه « حشرى» فلا مانع لديه من أن يعلم فلاحة بسيطة مثلا كيف تطهو الكرنب بالبشامل .. والويل لها من حامد لو أنها تجرأ وسألت ما هو هذا «البسم الله» لو أبدت دهشتها من هذا الكرنب الذى يطبخونه بهذا الذى يقوله «سى» الدكتور فهى جاهلة بنت جاهلة ولن تتقدم خطوة فى حياتها وهى أيضا سبب فساد الكون .. ولا يسع المرأة رغم هذا كله ألا ان تضحك .. فالدكتور حامد كما يعلم الجميع يملك قلباً أبيض من اللبن الحليب وهى صفات ساعدته على إحتمال رجل مثل الحاج خلف الله الروبى.. ودعت الحاج خلف الله الروبى إلى التمسك مدى عمره بصداقة الدكتور حامد القشلان رغم ما قد يبدو وبينهما من مناقرة وتنافر فى أغلب الأوقات..

فالحاج خلف الله عصبى مفرط فى العصبية ولا يطيق أن يخالفه فى الرأى مخلوق.. والدكتور حامد ديمقراطى إلى أبعد الحدود قد يقضى ساعة مع فلاح بسيط يتناقشان رأساً برأس..

والحاج خلف الله أهلاوى متعصب لا يتصور أن يكون على سطح الأرض مخلوق يفهم فى الكرة ولا يكون أهلويا..

والدكتور حامد القشلان زملكاوى يرى الزمالك أهلا أن يهزم البرازيل واسبانيا مجتمعتين لولا الحظ!!

وتظل تدور بينهما مناقرات الكرة ويتذكران معا أو يذكر أحدهما الآخر كيف سجل أبو حباجة مثلاً هدفاً فى مرمى الزمالك فى الخمسينات ويرد الاخر مشيراً إلى ترقيصة عصام بهيج فى المباراة المشهودة التى فاز فيها الزمالك.. وهكذا وهكذا قصص لا يعرف أحد كيف تبدأ ولا كيف تنتهى والصديقان فى النهاية على أحسن ما يكونان من الحب والوفاء..

فى مثل هذه الجلسات العائلية والجو ظريف والجميع يضحكون لايفوت لقمة أن ينتهز الفرصة ليسأل مجدى فى عشم كبير

- وانتى امتى بقى يامجدى بيه حتاخدنى معاك أمثل فى السيما؟

ويضحك مجدى ويجدها فرصة للمرح

- فى السيما مرة واحدة يالقمة؟

- آى والنبى آمال إيه.. حاكم آنى ممثل حلو قوى

- ما آنا عارف إنت ح تقول لى..

وبعد فترة صمت

- بس فيه عيب واحد فيك يالقمة

- إيه هو وانى وايمانات المسلمين أصلحه على طول !

- اسمك يعنى موش سينمائى قوى

- خلاص ياسى مجدى ..نغيره.. وإيه يعنى ..

ويتلفت حوله

- يعنى هو عمر الشريف كان اسمه عمر الشريف؟ ولاّ نور الشريف ذاته؟

- طب وح تسمى نفسك إيه بقى ياوله يالقمة؟

يقولها الحاج خلف ا لله ضاحكاً

- أنى أقول لك ياسى الحاج

وبعد لحظة تفكير:

- مثلا يعنى مثلا بدل مايكون لقمة أبو طاحون .. نخليه لقمة الشريف .. صح ياسى مجدى؟

ويدور الضحك ولايتوقف عندما يبدأ لقمة فى تقديم بعض المشاهد التمثيلية لاثبات موهبته.

وتعود أحلام ضاحكة

مطمئنة إلى جوار الحاج خلف الله بعد أن كاد ريقها يجف من الذعر

- إنتى اسمك أيه

يقولها الحاج خلف الله فى حنان .

- أحلام

- الله..

تخرج من قلب الحاج خلف الله ويرددها على لسانه كأنما يستطعم الإسم

- أحلام .. اسمك حلو قوى يا أحلام.

وتبتسم أحلام شاكرة .. وتبدأ تشعر أنها تحب هذا الرجل العصبى الطيب..

هل لأنه يذكرها بعصبية والدها الذى رحل وهى بعد طفلة لا تعى ذاكرتها عنه الا بعض ومضات يكاد يمحوها الزمن قبل أن يتركها واخوتها

وأمها الصابرة التى تحملت وقاست كثيراً من أجل أن تربيهم وتدفع بهم إلى مواصلة تعليمهم بمعاش المرحوم الذى لا يكاد يكفى قوت الأسرة الضرورى ..

- بنت مين بقى في مصر يا أحلام .. ما قلتيليش؟!

ويسرع مجدى إلى التدخل خوفا من أن تفضح أحلام كل شىء بغير قصد وبحسن نيه..

- بنت صادق بيه.. صادق بيه الشرقاوى.

وهكذا .. يخبط مجدى الاسم الذى وجده فى ذاكرته ..

ويردد الجد الاسم كمن يتذكر.

- صادق بيه الشرقاوى؟ .. صادق بيه الشرقاوى؟..

ويقول موجهها سؤاله إلى أحلام.

- صادق بيه حسين الشرقاوى بتاع مجلس الشيوخ ولا صادق بيه على الشرقاوى بتاع الخارجية؟..

وتنظر أحلام إلى مجدى فى حيرة وفى عينيها رجاء بالتدخل.

- لأ يا جدى .. ما أظنش .. ده صادق بيه واحد تانى خالص حضرتك ما تعرفوش..

- ليه يا مجدى يا بنى..

مش بتقول ساكنين فى الزمالك فى شارع الجبلاية.. أيوه الجبلاية.. يبقى هو صادق بيه على بتاع الخارجية..

ويضيف منتصراً..

- ده حبيبى الروح بالروح وياما لينا مع بعض فصول.

يعتدل لقمة فى جلسته على الأرض ليسمع الحكاية.

ـ أيوه ياحاج..احكى لنا والنبى احكى .. ده إنت حتى حكاياتك كلها حلوة.. أجدع من حكايات الدكتور ده!

ويشير الى الدكتور حامد..

ويستطرد ضاحكا..

– طب ده حتى ف مرة ما انساهاش .. ويغلبه الضحك فيقول وهو يغالب سعلاته : طب اسمع دى ياوله – كنا أنا وهو ف مرة.. ولا بلاش بنته تعرف تبقى حكاية

لكن مجدى يحسم المسألة.

– يا جدى أنا متأكد .. مش هو..

فيوجه الجد كلامه إلى أحلام..

– بالك يا بت .. قصدى يا مزمزيل أحلام أنا لما أخف كده أن شاء الله ح أطب عليكو ف مصر واوريكو ساعتها قد أيه أنا وصادق ابوكى ده حبايب وأصحاب..

ويسرح الحاج خلف الله مع ذكرياته.

– إياكى انتى اللى كنت باشوفك فى جنينة السراية بتاعتكو وانتى صغيرة وكنتى تجرى منى أول ما تلمحينى..

وتستنجد أحلام بمجدى فى ضراعة صامتة

ويتدخل مجدى.

– مش واجب برضه يا جدى نسيب أحلام ترتاح م السفر ولا أيه؟

ويرد الجد بحسم

- أيوه واجب طبعاً.

ويشير إلى الدكتور حامد

- معاهم يا حامد وشوف البنات جهزوا إيه للعشا وادى عروسة مجدى ابنى أحسنها أودة عندنا .. يالله.. معاه ياوله يالقمة.

ولا يملك حامد إلا تنفيذ الأوامر.. صحيح أنه يستنكفها بينه وبين نفسه كما لا تعجبه اللهجة الآمرة أمام الأغراب والأدهى تلك المهمة الجديدة التى أسندت إلى حكيمباشى صحة سابق قد الدنيا مثله يكلف الآن بمهام لا يؤديها إلا الخدم!!

لكنه يقنع نفسه ليرتاح فيردد فى سره.

«صاحبى بقى ومتعشم فىّ..ح أعمل إيه يعنى؟»

ويقول بلهجة آمرة انتقلت إليه من الحاج خلف الله موجهاً كلامه إلى مجدى وأحلام.

- مستنيين إيه.. ياللا أنت وهى قدامى..

لكنه قبل الخروج يلتفت من وراء ظهره إلى الحاج خلف الله الذى يطفح وجهه بالفرحة..

ويغمز له الحاج خلف الله راسماً بأصابعه علامة تشير إلى الانتصار وتحمل فى الوقت نفسه معانى إعجابه بعروس مجدى فيرد عليه الدكتور حامد نفس الإشارة ويبتسم لنفسه إبتسامه عريضة تعزز عنده المعنى الكبير لصداقته الممتدة بالحاج خلف الله الرجل الطيب.

ويسرح الحاج خلف الله قليلاً يفكر فى الغد.. كيف سينهض وهو المريض من فراشه وكيف يقنعهم بأنه شفى ليقوم بالجولة التى قررها فى طول البلد وعرضها يدعو أهلها ليعرفهم على أحلام عروس حفيده مجدى

التى دخلت قلبه وارتاح لها منذ اللحظة الأولى التى رآها فيها ويتولى الدكتور حامد هذه المسألة أيضاً.. فهذه هى العادة .. يخلق الحاج خلف الله المشكلة وعلى حامد حلها.. ولم لا .. اليس هو حكيمباش المركز كله .. سابقاً؟!

....

ويزف الدكتور حامد البشرى الى مجدى وأحلام بينما هم جميعاً سائرون فى ممشى الحديقة تسبقهم خطوة حامد المنشرحة المستبشرة تقودهم الى حيث ينتظرهم الحاج خلف الله الذى تقدمت صحته هذا الصباح عن أمس بشكل ملحوظ منذ وصلت أحلام..

أستيقظ الحاج خلف الله مبكراً نشطاً ممتلئا بالحيوية كما كان منذ أكثر من عشر سنوات وخرج إلى الحديقة ليبدأ يوماً عامراً بالبهجة واستقبال الحياة التى مازالت تحمل مزيداً من الأفراح ويستقبل الحاج خلف الله- لدهشة مجدى ـ أحلام استقبال الأب لابنته.. وتندفع أحلام إلى حضن الحاج خلف الله كما كانت تندفع إلى حضن أبيها.. ولكى يثبت لهم أنه مازال قويا يرفعها الحاج خلف الله بين ذراعيه فى الهواء.. وسط شهقات أحلام الخائفة وضحكات الدكتور حامد الجزلة وتحذيرات مجدى المتحفظة.. ويسبق الحاج خلف الله الجميع إلى مائدة الإفطار العامرة ويجلس ليأكل ويؤاكلهم ويتحفهم هذا الصباح على غير العادة بالعديد من تعليقاته وفكاهاته ويخص حامد بالطبع بنصيب وافر منها يتقبله حامد راضياً ضاحكاً مشاركاً فتتحول مائدة الإفطار إلى جلسة أسرية سعيدة غابت عن المكان وساكنيه زمناً طويلاً وها هى تعود مع مقدم أحلام..

ويبلغ الطرب مداه مع الدكتور حامد فيغنى دوراً من الأدوار القديمة

بصوت حلو يعيد للحاج خلف ذكريات زمان.. وتملأ النشوة رأس الشيخ العجوز فلا يملك إلا أن يدق على المائدة بأصابعه ايقاع اللحن ويشارك مجدى وأحلام فى الأغنية التى تقطعها سعلات وضحكات الحاج خلف الله والدكتور حامد..

وينهض الحاج خلف الله محتضناً بذراعه أحلام كفرخ طير وديع إطمأن تحت جناح النسر العجوز.

فى حنان يضع ذراعه الأخرى على كتف مجدى.. من خلفهم يسير ومازال يدندن اللحن الدكتور حامد وقد استبدت به نشوة طرب ممزوجة بسعادة يراها قريبة فكان فى سيره أقرب إلى الرقص الأمر الذى لفت أنظار الجميع وكان سبباً فى مزيد من ضحكهم الذى لم يأبه له الكتور حامد ولم يعره أى التفات..

ويلاحظ مجدى أن علاقة أحلام بجده تتطور بسرعة فيقرر تدارك الأمر قبل فوات الوقت. وتتأكد هواجسه يوما بعد يوم.. بل ساعة بعد ساعة.. فها هو جده وكأنه قد عاد شاباً يلعب بعض التمرينات السويدية التى علمتها له أحلام ووقفت أمامه تشرف بنفسها على التنفيذ.

ولايفوت لقمة وهو الذى سيصبح أحد نجوم «السيما» فى مصر أن بشارك ولو من بعيد فى التمرينات الرياضية فهى ولاشك ستمنحه بعض الرشاقة ليكون نجم«سيما» قد الدنيا..يمارس التمرينات ولكن بشكل كوميدى يلفت نظر الحاج خلف الله وأحلام معاً فيغرقان فى الضحك..

وها هو أيضاً فى لحظة صفاء نادرة يجلس معها فى التراس يرشف من فنجان الشاى الذى أعدته له بيديها ويدندن معها لحنا قديماً أكتشف بسعادة غامرة أنها تحفظه أيضاً.

وها هما يجلسان معا ساعة العصارى على حجرين بجوار شاطىء الترعة يصيدان السمك بالسنارة وضحكاتهما تملأ من حولهما الخلاء الواسع.

ولا يفوت أحلام طالبة معهد التمثيل أن تدخل على قلب جدها- هكذا تناديه - الحاج خلف الله السرور بأن تقلد أمامه الدكتور حامد حين ينهره الحاج أو حتى تقلد الحاج خلف نفسه الذى يغرق فى الضحك حتى يهيج فى صدره السعال فلا يملك إلا أن يتوقف وهو يردد وقد ملأت عينيه دموع السعادة: كفاية يا أحلام كفاية!!..

ويقرر مجدى حسم الأمر فوراً قبل إستفحال الخطر الذى يراه قد أصبح وشيكا..

وتشهد غرفة أحلام مشادة حامية بين مجدى وأحلام مزقت سكون الليل ولابد أن صوتيهما قد أيقظا الجد النائم فوق يسبح فى الأحلام السعيدة بمولود يهننه بين يديه ويلاعبه ويملأ قلبه الشيخ بالسعادة قبل أن يغمض عينيه عن هذه الدنيا..

يقوم الحاج خلف الله من فراشه مكذباً أذنيه بادىء الأمر.. ثم يهبط من الفراش ويخرج من الغرفة إلى الممشى أمامه فترتفع طبقة الصوت وتتضح.

نعم .. هذا هو صوت مجدى .

ويرهف الجد سمعه وقد هزته الصدمة..

هذا هو مجدى يأمر أحلام بأن تغادر من فورها البلد عائدة إلى القاهرة لتتسلم أجرها من الأستاذ فهمى شويه ولتقل لجده أى عذر فهى ممثلة تستطيع أن تسبك أى سبب تقنع به جده بضرورة عودتها إلى بيتها..

وتصيح أحلام..

- يا أستاذ أنا غلطت فى ايه.. فهمنى!! الحاج خلف نفسه يشوفك زوج

وأب.. ما غلطش .. حضرتك كذبت عليه أنا ذنبى ايه؟ .. جبتونى على ملا وشى.. أبقى غلطانه فى ايه؟ .. وأنا يعنى كنت ح أعمل أيه.. مش دى أوامر حضرتك..

ويرد مجدى عل صياحها.

– أيوه .. تقومى حضرتك ما تصدقى.. وهات يا ضحك وهزار وغنا علشان يتعلق بيكى واشرب أنا المقلب..

ثم يواصل فى انفعال :

– لا يا آنسة .. دا بعدك .. فوقى .. ما تنسيش انتى مين!

ويبلغ الغيظ مداه داخل أحلام..

– على مهلك شوية يا أستاذ .. بعد أيه وقرب إيه.. أنا لا يمكن أستنى هنا دقيقة واحدة بعد كدة.. بس عايزة أفهم حضرتك حاجة قبل ما أمشى .. أنا فعلا حبيت الحاج خلف الله لأنه بيفكرنى بالمرحوم بابا.. مش لأى سبب تانى يا أستاذ.. أنا بنت ناس برضه وبادرس فى معهد التمثيل وباشتغل علشان أساعد ماما وأخواتى .

وتبكى أحلام .. تخنقها الدموع فيتهدج صوتها.

– أظن مش عيب انى أشتغل وأساعد ماما وأخواتى بعد وفاة بابا؟؟

ويرتبك مجدى..

ويحس الجد بالالم يعصر قلبه..

فهو أحب أحلام فعلا واختارها عروسا لمجدى.. لكن لماذا تكذب يا مجدى .. لماذا؟؟ لماذا لم تصارحنى بالحقيقة من أول دقيقة؟! ويقرر الجد شيئا فى نفسه.

ويعود إلى غرفته.. يلقى بنفسه فوق الفراش وقد أفترسه الهم والقلق .. ويظل إلى قرب مطلع الصبح مفتوح العينين يحدق فى فضاء الغرفة والتفكير يكاد يعصف به عصفاً..

الصبح كان « لقمة» يدخل على الحاج خلف الله يحمل اليه الفطور والشاى وجرائد الصباح . لم يكن الحاج كعادته.. فى عينيه أثر السهر والتفكير

ـ مالك كفى اله الشر ياحاج ؟

ـ ح اتجن يا وله يالقمة..

ـ الف بعد الشر عليك ياحاج..

يقولها لقمة وهويشير بيده اشارة تدل على الجنون

ـ تعمل إيه ياوله يالقمة لو يعنى عرفت ان الانسان اللى بتحبه وبتثق فيه بيضحك عليك؟!

ـ يالهوى ياسى الحاج.. دانى أعمل كثير .. كثير قوى

ثم بعد فترة تفكير

ـ لكن مين ده ياسى الحاج اللى يقدر يضحك عليك؟

ـ سى مجدى ياوله يالقمة

يرد لقمة دون تفكير :

ـ يانهار أبوه اسود!!

لكن الحاج خلف الله يعاجله:

ـ وله..

- سامحنى يا بالحاج ..لكن من غير مؤاخذة ضحك عليك ازاى يعنى؟

ويحكى الحاج خلف الله للقمة ماسمعه وعرفه..ويفكر لقمة طويلا.. يروح ويجئ في الغرفة كهيئة من يفكرون بعمق .. ثم فجأة:

- اسمع ياحاج ..هوه مش ضحك عليك؟ خلاص بقى اضحك إنتى كمان عليه.. وآهو مقلب قصاد مقلب.

- ازاى يعنى يا فالح؟!

وانت حضرتك يعنى مش المزمزيل أحلام عاجباك ودخلت دماغك واستجدعتها؟!

- شهادة لله ..آه

- خلاص .. طظ بقى في سى مجدى بتاعك!

- وله .. الله

- ماتأخذنيش ياحاج ماهى حاجة تفرس

- وبعدين . كملّ يابو العريّف

- جوز هاله وهات مناخيره الأرض آهو يستاهل خليه يتربى!

ويفكر الحاج خلف الله طويلا.. وينظر الى لقمة نظرة طويلة ربما يكون معناها أنه بدأ يقتنع بكلامه..

ثم وكمن يكلم نفسه يقول الحاج خلف الله « ماشى يامجدى ..وماله.. امانشوف آخرتها وياك» !

....

....

من شاطىء البحر عادت منى الحديدى الى الفندق تكاد تموت من الإرهاق والجوع والحر.. طلبت الغداء فى غرفتها وخرجت من الحمام الذى أزالت به ملح البحر لتدير قرص التليفون تطلب مجدى فى فندق الكرافيل الذى ينزل فيه.. جاءها رد موظف الإستقبال مفاجأة .. سألت ملهوفة لا تكاد تصدق.

- سافر .. امتى ؟!

فهو من يومين فقط كان معها..

كانا أمس الأول معا وأخبرته أنها ستقضى يوم أمس مع شقيقها وبعض أصدقائه اليونانيين فى الريف .. واليوم كان مفروضاً أن تراه وها هو يسافر فجأة إلى مصر..

استيقظت الهواجس داخل صدرها.

فعودة مجدى إلى مصر فجأة معناها أنه يقطع عمله .. وهو يقدس عمله ولا يقطعه إلا لسبب قوى.. ماذا عساه يكون هذا السبب؟! ستعرف من سعيد فهو ولا شك عنده الإجابة..

وأسرعت منى تتصل بالأستوديو تطلب الأستاذ سعيد للتأكد أولا من خبر السفر ثم تعرف منه دواعى السفر لتطمئن..

ويؤكد لها سعيد الخبر قائلاً أن الأستاذ مجدى قد سافر على الفور عندما تلقى برقية بوفاة جده.. وتبدى منى إستياءها..

- وليه مايقوليش يا سعيد .. وليه أنت كمان ماتقوليش.. انتوليه بتخبوا عليا؟..

ويحتار سعيد .

- يا هانم أعذريه.. الوقت ضيق.. وكمان ماحبش يزعجك بخبر زى ده يعنى..

- خلاص .. طب أنت عارف بلدهم فين؟

ويشرح لها سعيد كيف تصل إلى بلد مجدى فى مصر بعد أن علم منها أنها قررت السفر اليوم على أى طائرة وفى أى وقت لتلحق بمجدى هناك..

وتحجز منى على الطائرة التى تصل إلى مطار القاهرة الثامنة مساء فتجهز حقائبها وتطلب من الإستقبال السيارة التى ستحلمهما من فندق جليكادا الذى تنزل فيه حتى المطار..

وتتأمل منى الشوارع بينما العربة تنطلق بها.. ها هى تودع أثينا التى شهدت بدايات تعلقها بمجدى .. هذا هو شارع سانجرو وما أكثر ما تسكعت فيه مع مجدى ذراعها معلق بذراعه.. وما أكثر ما دخلامن دكاكين يتفرجان ويشتريان ويقضيان معا أوقاتاً لن تنساها..

من بعيد .. عبر الإشارة التى توقفت فيها السيارة تستطيع أن تتصور ميدان ساندغما والسوق هناك عامرة بالعرب والأجانب من جميع الجنسيات يتفرجون على الفاترينات ويثرثرون ومجدى إلى جوارها يضحك ويطلب إليها العودة فقد كادت رأسه أن تنفجر من كل هذه الضوضاء..

رفعت منى عينيها إلى الأكروبول الصامت تودع أثينا واغمضتها ملقية برأسها إلى الخلف تتصور كيف يكون الحال الآن فى مصر!!

ولعلها فكرت ولو للحظة فى أن وفاة جد مجدى لابد ستؤجل زواجهما وتعطل كل مشروعاتها للمستقبل..

واحست منى بشىء من الحزن والمرارة يتسللان إلى روحها..

من المطار حاولت منى للمرة الأخيرة الإتصال بشقيقها مراد فى مكتبه أو شقته فلم تفلح.. كررت الإتصال أكثر من مرة دون جدوى.. كانت تريد أن تخبره بسفرها المفاجىء إلى القاهرة .. ولم تجد أمامها مرة أخرى سوى الإتصال بسعيد فى الأستوديو ثم فى الأوتيل لترجوه أن يتولى هو عنها مهمة الإتصال بمراد الذى قالت انها تركت له رسالة على مسجل التليفون ..

....

مع أول خيوط الصبح كان الحاج خلف الله قد أتم وضع خطته ورسم لنفسه كل تفاصيلها فارسل فى طلب الدكتور حامد القشلان أركان حربه وذراعه الأيمن فى مثل هذه المأموريات وغيرها..

ولم يلبث الدكتور حامد أن جاء مهرولاً تسبقه مخاوفه من شطحات الحاج وعصبيته التى لا يستطيع مواجهتها..

فى همة راح الدكتور حامد يصعد السلم إلى غرفة الحاج الذى كان ينتظره فى لهفة على رأس السلم فى مواجهة الغرفة ليخطفه من ذراعه إلى الداخل قبل أن ينتبه الدكتور إلى ما يجرى حوله..

ويطلع الحاج الدكتور حامد على تفاصيل الخطة ودوره فيها فيبادر الدكتور إلى التنفيذ الفورى وينطلق هابطاً السلم ليفاجأ بمجدى فى منتصف المسافة على السلم..

يرتاب مجدى بالطبع .. فما سبب وجود الدكتور حامد فى مثل هذا الوقت المبكر من الصباح فى الفيللا.. لابد أن جده يدبر شيئا جديداً ولابد أن يعرفه مجدى..

– خير يا دكتور .. فيه حاجة؟!

- سلامتك يا أستاذ مجدى يا بنى .. مافيش أى حاجة .

يقولها الدكتور حامد راسماً على وجهه كل علامات البراءة التى لا تقنع مجدى.

- أمال يعنى ؟! .. يكون جدى تعبان شوية ولا حاجة؟!

يمصمص الدكتور حامد شفتيه.

- تعبان ؟! ده إحنا يا بنى اللى تعبانين. عن إذنك ماتعطلنيش..

وتتأكد مخاوف مجدى..

فلهجة الدكتور حامد تكاد تصرح أن فى الأمر شيئاً يدبره جده.

ويقفز مجدى الدرجات الباقية إلى حجرة جده لعله يعرف ما ينتويه هذا العجوز العنيد الماكر الذى لا يسلم أبدا بالهزيمة..

ويبدأ مجدى المناورة..

- أحلام بتستأذن يا جدى عشان راجعة مصر دلوقتى. .

وكأنه فوجىء يسأله الجد متصنعاً الأنزعاج.

- دى لوقت دى الوقت؟! راجع مصر .. خير ليه..؟!

- لازم يا جدى ما هى ما تقدرش تقعد أكثر من كده.. وآهى اطمنت عليك وحترجع تطمنهم فى البيت..

- يا سلام !! يا سيدى إذا كان عليهم فى مصر أنا أكلمهم بنفسى واترجى صادق بك تقعد لها كما يومين حدانا تتفسح وتشم الهوا.. وآهو صاحبى ومش ممكن حيكسفنى..

ويرد مجدى مذعورا فخطته تكاد تطيش أمام حصار جده..

- بلاش يا جدى .. مانضايقهاش أحسن..

- الله .. بلاش ليه يا وله.. فهمنى ؟!

- قصدى بلاش يعنى نحرجها مع أهلها.. أصلهم صعب قوى .. أنا حابقى أكلمهم فى وقت تانى وتبقى ترجع فى فرصة قريبة..

- لأ .. كلمهم دى الوقت .. فهمهم أن أنا لسة ما أحتفلتش بعروسة أبن ابنى مجدى ولا عرفتها على بلدنا ولا أهل البلد حتى لحقوا يتعرفوا على عروستك يا سيدى .. كلمهم وهم أن شاء الله حيوافقوا..

لا يستطيع مجدى أن يزحزح جده عن عناده..ويدفعه الحاج خلف الله مستحثا..

- يالله روح أنت دلوقت أعمل زى ما بقول لك وابعث لى أحلام عشان نعمل سوا تمرينات الرياضة .. يالله يا مجدى مستنى إيه.. شوفها لى فين إلا دى وحشتنى العكروتة دى.. يالله يا مجدى ماتقفليش كده تبحلق فيا..

ولا يرى مجدى أى فائدة فى زحزحة الجد.. ولا يعرف مخرجاً للورطة التى أوقع نفسه فيها فيرضخ إزاء الحاح جده على أمل أن تنصلح الظروف فى وقت قريب فيصارح جده بالحقيقة كلها وليكن ما يكون فلم يعد يهتم..

ويسرح مجدى فى غرفته يتصور مشهد الحوار مع جده وعينا جده تتسعان دهشة من هول المفاجأة..

- يا جدى الحقيقة أنى كذبت عليك.. سامحنى .. كان غصب عنى. . أحلام دى موش خطيبتى .. أحلام دى واحدة بتشتغل معانا فى الأستوديو .. ممثلة يعنى وبعدين أنا اتفقت معاها تمثل الدور ده لحد ما الاقى مخرج من المطب اللى حضرتك وقعتنى فيه..

تكاد المفاجأة تشل الجد ويهتز كيانه كله..

- إيه اللى أنا باسمعه ده يا مجدى.. أنت تكذب على ؟! طب ليه يا بنى .. ليه ماصارحتنيش بالحقيقة من الأول؟! موش عيب تعمل على جدك شغل التمثيل بتاعك ده؟!

- يا جدى أرجوك سامحنى .. أصل خطيبتى كانت معايا فى اليونان وأرجوك أنا ماكنتش أعرف أن حضرتك عاوز تشوف خطيبتى .. أنا كنت فاكر يعنى .. .

- أنى مت؟! موش كده؟!

- بعد الشر عليك يا جدى .. أنا يعنى كمان خفت أن حضرت لما تعرف أن خطبيتى معايا فى اليونان تفتكر لاسمح الله حاجة كدة ولا كدة .

- أقول ايه وأعيد ايه. ايه الكلام الخايب اللى أنا باسمعه منك ده يا مجدى؟!

- وبعدين فهمنى .. إزاى يعنى خطيبتك تبقى موش خطيبتك .. هى ايه الحكاية بالظبط.. فهمنى..

ويتلعثم مجدى فيشخط فيه الحاج خلف الله

- انطق .. قول.

- قصدى يا جدى يعنى أنى لسه ما قررتش .. يعنى لسه موش مقتنع قوى .

ويصحو مجدى من خيالاته على صوت نقرات على بابه.

- أدخل ..

وتدخل أحلام..

تضع حقيبتها خلف الباب وتتقدم خطوات وتقف مستكينة وقد نكست وجهها إلى الأرض.

- أنا جاهزة يا أستاذ..

ويأتيها رد مجدى كدش الماء البارد فوق رأسها معلهش بقى .. الظاهر أنك حتشرفينا كمان يومين!

ترفع أحلام رأسها إليه وتنظر فى عينيه تريد أن تفهم ماذا يجرى حولها وتقول بثبات.

- ممكن أفهم ليه؟!

يقول مجدى فى برود.

- جدى عاوز كده!

تقول أحلام وقد بدأ صوتها يختلج غيظاً

- وأنا .. ايه؟! ماليش رأى.. ماليش ارادة.. حضرتك عاوزنى امشى.. حاضر.. أمشى .. جد حضرتك عاوزنى أستنى .. حاضر ... أستنى .. لعبة بتلعبوا بيها.. حرام عليكم كده .. حرام .. أنا بنى آدم وعندى احساس وليا شعورى وكرامتى.. وتجهش أحلام بالبكاء..

ويستولى الإرتباك على مجدى أمام دموعها.. ولا تنتبه هى لربتاته فوق كتفها مطيبا خاطرها..

خلاص بقى .. كفاية .. مافيش داعى لكل ده.. خلاص

لكنها تستمر فى البكاء فلا يملك إلا أن يصرخ فيها:

- خلاص بقى .. كفاية ..إيه؟! إعتبريه شغل.. شغل زى أى شغل وبتاخدى عليه أجر.. وأجر كويس كمان.. وإلا أنتى صدقتى الحكاية.. موش عاوزه تشتغلى قولى موش عاوزه أشتغل وخلصينا..

- متأسفة يا أستاذ .. موش ده الشغل اللى بافكر فيه ولا كنت أتمناه .. أنا فنانة يا أستاذ ولما حضرتك كلمتنى أنا بس وافقت علشان كان عندى أمل أنك تقتنع بيا كممثلة بادرس وباتعلم .. وكمان علشان خاطر الراجل الطيب ده اللى حبنى بصدق زى ما أكون بنته وحبيته أنا زى ما يكون أبويا.. وكمان علشان..

- عشان أيه.. ما تقولى..

- عشان بصراحة أنت صعبت عليا.. أو مرة أشوف الأستاذ مجدى المخرج العظيم وهو زى التلميذ الخايب اللى خايف من المدرس بتاعه.. إنما دلوقتى خلاص .. ماشيه يعنى ماشية

- حتقعدى يا آنسة. . يعنى حتقعدى..

- ماشية

- حتقعدى

لكن صوت الجد الذى ينادى من فوق يسكتهما فجأة.

- أحلام .. إنتى فين يا بنتى؟!

ودون أن تفكر .. وجدت أحلام نفسها تخرج من الغرفة جريا ترد

- حالاً يا جدى جاية.. حالاً..

تقولها من قلبها وتحس طعمها فى فمها وفى روحها فتقفز الدرجات الى الجد الواقف بأعلى السلم لترتمى بين ذراعيه.

ويلاحظ الجد آثار دموعها التى لم تمسحها جيداً.

- مالك يا بنتى .. فيه حاجة.. ايه الدموع دى ؟! أوعى يكون الواد مجدى زعلك .. اللى يزعلك هنا بس قولى لى عليه وشوفى جدك يعمل فيه ايه

تضحك أحلام.

- سلامتك يا جدى.. أنا بس كنت بافكر أروح مصر النهاردة وكنت جايه أستأذن من حضرتك يعنى وح أبقى آجى تانى..

لكن الحاج خلف الله يفاجئها فى حسم:

- لا خلاص بقى ماتشغليش بالك.. أنا اتفقت مع مجدى أنك حتقعدى معانا كما يومين وهو حيكلم صادق بك والدك ولا أنا حتى أكلمه نستسمحه يعنى واديكى ياستى قاعدة مع جدك حبيبك تونسيه وتاخدى بالك منه ولا يعنى لحقتى تزهقى منه خلاص..

وترد أحلام ضاحكة بكل الصدق وتقول من قلبها..

- فشر يا جدى..

فيضمها الحاج خلف الله فى حضنه ويحس بالصدق فى صوتها ويقرر بينه وبين نفسه أنها هى عروس مجدى وليخبط مجدى رأسه فى الحائط!!

وينحنى الجد يقبل رأسها فى حنان ويطلقها من بين يديه كطائر وديع يملأ عليه بيته الموحش سعادة وحياة ويبدد فيه الإحساس بالوحدة والكآبة..

وتنطلق أحلام كالعصفورة تقفز فوق السلم هابطة ونظرات الجد تتابعها .. تشير له باى باى.. فيرد عليها إشارتها

وتتعمد أحلام أن تمر على حجرة مجدى .. تدفع عليه الباب داخلة وتقول وقد تعمدت أن تغيظه

- شيل بقى الشنطة لحد ما ابقى أقول لك أمتى تجيبها.. باى.

وتنفلت خارجة قبل أن تسمع رده..

....

جلست أحلام فى غرفتها تطلب الترنك تكلم أمها فى شقة الجيران.

قالت لها أنها ربما تتغيب بضعة أيام أخرى لظروف العمل.

– تصوير خارجى يا ماما.. معلهش يا حبيبتى والنبى دى فرصة كبيرة قوى يا ماما.. ادعى لبنتك وبوسى لى اخواتى .. الدور كبير قوى يا ماما ادعى لى .. باى باى يا ماما وماتقلقيش أنا كويسة.. موش عايزة أنتى أى حاجة .. طب باى باى بقى..

وتضع أحلام السماعة وقد أحست براحة كبيرة.. لكنها ترى فى الوقت نفسه علامة إستفهام كبيرة أمامها ..

ماذا يا ترى يخبىء لها الغد؟.. لا تعلم .. ولا تملك إلا أن تنتظر وسترى ماذا يحمل لها الغد!!

....

كان يوما مشهوداً لن تنساه البلد..

الكل مشغول بشىء ما يتعلق بحفل الليلة الذى يقيمه الحاج خلف الله الروبى ويذبح فيه ويوسع على أهل البلد..

ستشهد القرية ولا شك ليلة ولا كل الليالى.. مغنى .. وطرب .. وطعام وسهر.. وصييته ومداحين .. ورقص بالخيل والعصا أيضاً..

حركة دائبة تشمل الجميع.. ولقمة هايص ولايص بين الجميع..يجرى هنا ويشير هناك ولايفعل فى الحقيقة أى شئ سوى أنه يصدر الأوامر ولايتابع حتى تنفيذها لكنه يحس أنه لابد أن يكون موجوداً فربما يحتاجون إليه فى أى شىء.. وهم لا يستغنون عنه فى ليلة كهذه ولايعرفون كيف يتصرفون بدونه..

فهنا يعلقون الزينات واللمبات..

وهنا يفرشون الأبسطة ويضعون الكراسى.

وهنا يزينون مداخل السراية.. وهنا يعدون الطعام.. وهنا .. وهنا والطنين لا يهدأ والضوضاء لا تكف وزياط الأطفال لا ينقطع وزغاريد البنات وضحكاتهن لا تتوقف وصياح الرجال يهدر فى كل مكان..

لم يبق إلا أقل القليل ويشرف أكابر البلد واصاغرها وكل مدعو.. والكل بعد أن فرغوا من أعداد المكان وانتهوا من ترتيباته عيونهم تتعلق بمداخل البلد تترقب فى كل لحظة وصول فرقة المزيكة والمغنين والمداحين والراقصة التى تراهنوا على مجيئها رغم شدة تحفظ الحاج خلف الله التى يعلمونها..

ربت الحاج خلف الله فوق كتف الدكتور حامد الذى كاد يهلك هذا النهار فى اعداد الحفل .. فابتسم حامد رداً على مجاملة خلف الله له

-تمام كدة كله يا حامد؟

- تمام يا حاج..

- معايا بقى نقابل الضيوف.

وبدأت بشائر ضيوف الحاج خلف الله تهل على المكان.. والكل يحلم بسهرة حتى الصباح تظل سيرتها فى فم الأهالى زمناً طويلاً .. وبدأ إطلاق الأعيرة النارية.. ورقصت الخيل على نغم المزمار البلدى وتسابق المتسابقون من شباب البلد فى إظهار المهارة فى لعبة التحطيب.. والكل سعيد إلا شخصاً واحداً كان الخوف الذى بدأ يشغل قلبه قد سيطر عليه الآن تماماً.

وراح الحاج خلف الله الذى عاد شعلة من النشاط والشباب يستقبل ضيوفه ويسير معهم يلاغيهم ويضاحكهم ويحيى هنا ويرحب هناك وينادى أحلام ومجدى ويقوم بواجبات التعارف وابتسامته لا تفارقه وضحكته المجلجلة لا تكف عن الجلجلة.

الفرحة الليلة لا تسعه..

لكن مجدى يضع يده على قلبه خوفا من تطور الأمور تطوراً غير محسوب قد يؤدى إلى كارثة.. ويفكر مجدى أكثر من مرة فى مفاتحة جده.. فربما أمكنه تدارك أى شيء من المصيبة التى تكاد تقع..

لكنه كلما لمح حماس جده، وفرحته المنطلقة فى عينيه وصوته تراجع خائفا من المواجهة.. فيقرر أرجاء الأمر كله إلى ما بعد الحفل وفى أقرب فرصة يستجمع شجاعته فيها ويضع المسألة كلها بكل ملابساتها بين يدى الحاج مستعداً لتقبل النتائج مهما كانت هذه النتائج.. وهكذا تمضى الليلة كما اراد الحاج خلف الله.. فالكل سعيد .. وأصوات المنشدين تتجاوب فى سكون ليل الريف والأضواء الملونة تلعلع فتحول البلد إلى مهرجان من الفرحة..وأصوات الأعيرة النارية.. أعادت للبلد عزها القديم. وعزفت الموسيقى

هز السميعة رءوسهم طرباً مع أغنيات المغنيين ورقص الغوازى.. ليلة لم تكن تحلم بها البلد.. ولطالما تمنتها وها هى يهديها إليهم الحاج خلف الله بمناسبة خطبة مجدى ابن ابنه الى عروسه أحلام ست البنات التى اختارها الحاج خلف الله. بنفسه... وهى - تتردد الهمسات - بنت باشا كبير من باشوات مصر كان صديقاً قديماً للحاج..

ولربما يسأل سائل: ولماذا لم يشرف الباشا والدها الحفل فيجيب المجيب

لأنه مشغول فى الوزارة فى مصر.. أو لأنه يدير عمله فى أوروبا وقد أرسل للحاج خلف الله هذا الصباح تلغرافاً فى أن ينوب عنه هو فى كل شىء.. ولم لا .. أليس صديق عمره؟!

لكن القلق ما يزال ينهش قلب أحلام. . فكل من حولها سعداء.. ومصدر سعادتهم أنهم لا يعرفون الحقيقة..

وتنظر أحلام إلى الحاج خلف الله نظرة ملؤها الشفقة تحمل معنى الرثاء له.. فهذا الرجل الطيب المخدوع فيها وفى مجدى لا يعرف حقيقة الكذبة الكبيرة التى اشتركا معا فى إدخالها عليه ولو علم الآن لسقط من فوره مصدوماً.

ويلتفت الحاج خلف الله إليها فتبتسم له إبتسامة ملؤها الحنان..ويرد الحاج إبتسامتها بابتسامة مشجعة..

فكرت أحلام للحظة فى أن تفاتحه.. هى ليست ابنته.. هى غريبة مهما كان الحال.. سيغضب وسيطردها لكنها ستكون قد أنقذته وردت له بعض عطفه عليها ووضعت يده على الحقيقة ولا يهمها بعد هذا ما يحدث.. فهذا خير ألف مرة من التمادى فى هذا الموقف السخيف الذى وجدت نفسها فيه..

ويبلغ الصراع داخلها مداه فلا تشعر بيد الحاج خلف الله التى تسحبها حتى تفاجأ به يقدمها لبعض ضيوفه بوصفها عروس مجدى التى اختارها له لتحفظ لهم أسم العائلة.

لكن أحلام لا تتمالك أعصابها فتندفع قائلة دون تفكير .

- لحظة واحدة يا جدى عاوزة أقول لحضرتك حاجة

لكن إشارة من يد الجد الحازم تسكتها.

يقول وصوته الهادىء الواثق يقطر حناناً وفهما.

– إستنى انتى يا أحلام ما تقوليش أى حاجة.. وسيبى كل حاجة لجدك العجوز ده..

تكاد المفاجأة تشل أحلام..

رنة صوته الحاج خلف الله تشى فيما يشبه اليقين بأنه يعرف كل شيء..

تسكت أحلام.. تنبهر أنفاسها فلا تقوى على الكلام ويدق قلبها خوفا.. ودهشة .. وترقباً..

آه .. هذه هى لحظة النهاية تقترب.. تكاد تراها ولا تعرف كيف سيكون شكل هذه اللحظة .. كيف سيكون موقفها أمام هذا الرجل الذى منحها ثقته وحبه وحنانه.. وأحبته هى حباً خالصاً منزها عن الغرض بعد أن وجدت فيه الأب الذى حرمت منه طفلة..؟!

....

....

كانت الوساوس تعربد فى نفس منى الحديدى وهى تقود سيارتها على الطريق إلى بلد مجدى ..

أوهامها تهدر داخلها كموج البحر ترفعها وتهوى بها فلا تستقر على حال..لماذا عودة مجدى المفاجعة هذه المرة؟ .. اترى جده يكون قد توفى فعلا كما علمت من سعيد .. أم أن هناك اشياء لا تعرفها وما زالت هى حتى هذه اللحظة لم تدخل بعد عالمه ولم تتجول فيه ولم تكتشف أبعاده..

نعم .. هو إنسان لطيف .. مثقف ونجم مشهور.. وفوق كل هذا ابن عائلة معروفة وثرية.. لكنها حتى الآن لا تعرف حقيقة شعوره نحوها فلم

يفاتحها فى شىء كهذا مطلقاً. وأن حاولت هى أن تفسر بعض تصرفاته معها على أنها تعبير عن خصوصية العلاقة بينهما.. لكن كل هذا يدخل فى دوائر التخمين والتمنى وقد يبتعد أو يقترب من الحقيقة والواقع وهذا شىء لا تعلمه هى على وجه اليقين..

لكن سفره المفاجىء ازعجها.. وعندما وقفت أمام المرآة هذا الصباح قبل أن تغادر الأوتيل إلى المطار فى أثينا ساورها خاطر موحش أصابها بشىء من الإكتئاب لكنها أسرعت تطرده قبل أن يتمكن منها..

وهى عندما تنظر إلى نفسها فى المرآة ترى نفسها جميلة.. رشيقة .. أنيقة.. سبور ومثقفة تجيد أكثر من لغة.. وهى إجتماعية تعيش الحياة المرحة والسهر والرقص والحفلات وتكره الهم والحزن والحياة الجافة الراكدة.. لذلك فهى تزور شقيقها مراد من وقت لآخر فى أثينا لتقضى معه جانباً من أجازتها من البنك الذى تعمل فيه فى القاهرة وقد يعطيها شيئاً من المال فتواصل جولاتها فى أوروبا حتى صادفت فى إحدى الإجازات مجدى الروبى يخرج من مكتب شقيقها مراد لتكتشف بعد هذا إنهما صديقان منذ كانا طفلين تجمعهما « تختة» واحدة فى فصل واحد.. قالت له أول مرة رأته بعد التعارف : ياه.. إنت مجدى اللى كنت بتيجى بيتنا ؟!.. ثم وهى تضحك من قلبها : ياه دا إنت كنت صغير قوى!!

فكرت منى بينما العربة تدخل بها إلى القرية أن كل هذا يعطيها بعض الحق فى مجدى ولولا كبرياؤها لكانت فاتحته هى فى أمر خطوبتهما.. أو على الأقل المحت إليها بشكل يفهمه..

من بعيد وصلت إلى آذان منى أصوات المزمار والدفوف وطلقات البارود تلعلع فى سماء القرية..

وازدادت الأمور تعقيداً أمام منى ..

فإذا كان جد مجدى قد مات فالمفروض أن ترى وتسمع مظاهر الحزن..

والأصوات التى تسمعها تدل على الفرح..

خاطر مر بها سريعاً ووجدته معقولاً..

لماذا لا يكون جد مجدى قد شفى من مرضه وأن البرقية التى وصلت مجدى كانت تقول مثلا ان الرجل فى خطر لكنها لم تقطع بوفاته.. ولعل سعيداً يكون قد سبق الحوادث عندما أخبرها بوفاة الجد..

قلبت منى الإحتمال فى رأسها .. ورأت أن وجودها هنا هذه الليلة إذا كان الأمر كذلك سيكون مظهراً من مظاهر المجاملة الشيك التى سيقدرها لها مجدى ولاشك .. لكن هاجس الشك لا يريد أن يغادر صدرها..

ولماذا لا تكون الليلة ليلة عرس مجدى؟!

ولم لا ؟!

أليسوا فلاحين؟! مصيبة لو كانت الحكاية كذلك..

ومهما كان حظ مجدى من الثقافة والنجومية فهو فى النهاية فلاح وابن فلاح ولابد أن جده هذا الغنى المتسلط قد استدعاه بهذه الوسيلة ليزوجه من احدى قريباته الثريات وسيرضخ مجدى طبعاً فماذا يضره من أجل أن يحافظ على ثروة العائلة بل ويضيف إليها ثروة جديدة .. ثم يعيش بعد هذا حياته كما يشاء ويستمتع بها ما شاء له الإستمتاع؟!

لكنها عندما لم تحتمل هذا الخاطر المزعج أسرعت تطرده عنها لتتمالك نفسها سريعا..

ولماذا تسبق الحوادث.. دقائق وترى بعينيها وتسمع بأذنيها وستعرف كل شىء..

واشعلت منى لنفسها سيجارة أخيرة قبل أن تدلف إلى حيث الأضواء وزينات الاحتفال ..

....

كان الحاج خلف الله يدور وسط الحلقة رافعاً عصاته فوق رأسه يرقص بها على إيقاع الموسيقى كما يرقص أشد الشباب فتوة.. تصاحبه نظرات إعجاب حقيقية من صديق عمره الدكتور حامد وسط تصفيق حلقة الملتفين حوله عندما توقفت سيارة منى الحديدى أمام سرادق الاحتفال . وينتبه على صوت نفير السيارة العالى بعض الحاضرين فيسرعون لإستقبال الهانم التى وفدت حالاً.. ويسرع بعضهم لإخطار مجدى بوصول ضيوف من مصر..

وتهبط منى الحديدى من السيارة فى بطء وتدور عيناها تمسحان المكان فى دهشة.. فالجو كله غريب عليها فى جملته..

وتنطلق بعض الرصاصات ترحيباً بقدومها فتفزع منى من صوت الرصاص بصورة تضحك بعض الحاضرين .. ويداخل منى شعور بالإنقباض من هذا الجو الذى تدخله لأول مرة..

ويسرع مجدى إليها لإستقبالها مرحباً ومغتصبا إبتسامة لم تفلح فى إخفاء رعبه من الكارثة التى أصبح الآن يراها واقعة لا محالة مع ما سيصاحبها من الفضيحة التى لن يقوى هو أوجده على إحتمالها .. وأحست منى بغريزتها أن إبتسامة مجدى وترحيبه مزيفان لا يخرجان من قلبه وبدا لعينيها واضحاً مدى الإرتباك الذى يسيطر على مجدى والحيرة والقلق الباديان على وجهه وفى تصرفاته .. ويدق قلبها بعنف خوفا من الخبر الذى لا تريد أن تسمعه وتفاجئه منى بالسؤال وهى تخطو إلى الحفل متعلقة بذراعه.

- الحفلة دى علشان ايه يا مجدى؟!

ويحاول مجدى أن يجيب لكن منى تواصل كلامها دون إنتظار لجوابه.

- آه .. نسيت .. البقية فى حياتك يا مجدى

ويباغت مجدى

- فى مين؟!

وتفاجأ منى أيضاً

- فى جدك طبعاً .. إيه هو مش مات ولا إيه .. أنا فهمت من سعيد..

ويتدخل لقمة الذى لابد وأن يكون حاضراً موقفاً كهذا لايمكن أن يفوته

- الف بعد الشر على سيدى خلف الله

يقولها متحديا فتنزعج للهجته منى..

ويرد مجدى موضحا فى لهجة لا تخلو من الإرتباك.

- آه ..آه.. لأ أصل كان حصل غلط يعنى .. إنما الحمد لله.. هو بخير دلوقتى ..

- آه ..أنا برضه خمنت كده..

وقد بدأت تحس أن فى الأفق شيئاً

- عموما مبروك لجدك..

ويتقدمها مجدى إلى وسط الدائرة التى يرقص فيها جده الذى تأخذه حمى الرقص فلا ينتبه إلى مجدى الذى ينادى أكثر من مرة ليلفت نظره إلى الزائرة التى تقف معه حتى يصيح فيه فيتوقف الجد.

- جدى الحاج خلف الله.

- منى هانم الحديدى

ويمد الحاج خلف الله يدا بللها العرق ويقول وهو يلهث

- أهلا يا هانم شرفتينا

ويحس مجدى أنه لابد من تعريف منى بأحلام التى كانت تقف فى الدائرة حول الحاج خلف الله تصفق له مع المصفقين..

ويشير مجدى إلى أحلام .. ويسارع الحاج خلف الله قائلا ليوفر على مجدى إرتباكه.

- أحلام .. عروسة مجدى ابنى.

ويمتقع لون منى وتحس إنها طعنت مرتين.. مرة فى قلبها ومرة فى كرامتها.. فتقف صامتة مشدوده حتى يبادرها الجد.

- خير يا هانم.. فى حاجة؟ .. تعبانه لا سمح الله من السفر؟!

ويقول مخاطباً مجدى..

- شوف للهانم دكتور يا مجدى قوام.

وتتمالك منى نفسها بصعوبة .

- لأ .. مرسى.. مافيش حاجة

- تحبى حضرتك ترتاحى طب من السفر..

ويتقدم الدكتور حامد ناظراً إلى الحاج خلف الله نظرات ذات مغزى.

- هو أنت نسيت أنى دكتور ولا إيه يا حاج؟! .. إيه حكاية شوف لها دكتور يا مجدى دى ؟!

ويقول الحاج خلف الله متجاوزاً ملاحظات حامد.

- طب شوف يا حامد اودة للهانم عندنا ترتاح فيها.. يالله يا .. دكتور.. ويواصل كلامه مرحباً بمنى.

- شرفتينا يا هانم والف حمدالله على سلامتك

وتفهم أحلام كل شيء في لحظة.

إذن .. فهذه هي خطيبة الاستاذ مجدى.. منى هانم الحديدى.والتى تقف أحلام الليلة مكانها كأنها دوبليرة البطلة..

تقول أحلام لنفسها بصوت هامس.. «مش قد كده يعنى»!! وتمصمص شفتيها ويسمعها الحاج خلف الله فيسألها

- بتقولى حاجة يا أحلام

- ولا حاجة يا جدى .

....

وفى غرفتها تنفجر منى ثائرة تسأل مجدى

- تقدر تفهمنى يا مجدى ايه اللى بيحصل بالظبط.. يعنى إيه عروستك؟! طبعاً أنا ماليش عليك أى حقوق لكن على الأقل أفهم.. من فضلك يعنى إذا كنا أصحاب .. أرجوك ..

ويحاول مجدى أن يشرح لها الموقف من بدايته.

يقول مجدى موضحاً.

- أنا طلبت النهاردة مكالمة لأثينا عشانك.. عشان تيجى.. أنا لازم اوضح الموقف ده كله لجدى.. كفاية بقى لحد كده .

وتقاطعه منى :

- كفاية إيه يا مجدى.. أنت فاكرنى عيلة بتضحك عليها .. ما خلاص يا أستاذ .. جدك أختار لك عروستك يا مخرج يا كبير.. يا مثقف قوى .. ناقص إيه تانى.. هو أنتو تضيعوا وقتكوا مع بنات الناس وبعدين تتجوزوا اللى يختاروها لكو؟.

- يا منى ارجوكى مافيش داعى للكلام ده..

- ناقص إيه تانى تقدر تقول لى .. تحددوا كتب الكتاب وتعيشوا فى التبات والنبات؟!

وأنا اللى كنت فاكراك بنى آدم بتحترم بنات الناس أو على الأقل بتحترم صاحبك وتحترم نفسك

ويصرخ مجدى فى وجهها بعد أن جرحته الإهانه.

- يا منى كفاية كده.. كفاية ارجوكى.. أنا مش صغير وعيب قوى اللى بتقوليه ده.. أنا ماحدش ح يتحكم فى عواطفى وأنا اللى باختار اللى ح أتجوزها موش حد تانى .. ده موقف أنا أتحطيت فيه وأنا اللى ح أقرر ايه اللى أعمله .

وترد منى ومازالت ثورتها لم تهدأ:

- أسمع يا مجدى .. دى مسألة تخصك زى ما بتقول.. أنا بقى مايهمنيش... أنا راجعة اليونان عند أخويا.. إذا كنت عاوزنى تبقى تجينى هناك.. بس أنا لازم أفهم جدك ان البنت دى نصابة.. لازم يعرف الكدبة اللى انت كدبتها على ولازم كما يعرف البنت دى على حقيقتها.. وإذا كنت أنت مش قادر تقول له .. أنا بقى أقدر أقول له..

ويصرخ مجدى مدركاً خطورة أن ينفجر الموقف على هذه الصورة..

– لأ يا منى .. بلاش ارجوكى .. أنا فهمتك انها بتنفذ اللى أنا طلبته منها.. هى مالهاش ذنب .. وبعدين أنا وعدتك إنى أنا ح أتصرف فى الموضوع ده..

وتلفت نظر منى تلك الحرارة فى دفاع مجدى عن أحلام فتشتعل غيرتها ويغرس الشك أشواكه فى قلبها.

– وانت محموق قوى علشانها كده ليه؟!

– علشان هى مظلومة معانا يا منى .. حرام عليكى ..

– ما تقول يا أستاذ انك بتحبها وموافق تتجوزها وتخلصنى وبلاش الحكاية الطويلة العريضة اللى عمال تحكيها لى دى ..

ويجد مجدى فى رنة صوت منى تحدياً لا يعجبه.. فهو لم يعدها بشىء مطلقاً وهى هنا تتعمد الضغط على أعصابه ولا يبدو أنها تريد أن تتفهم موقفه..

– يا منى أنا ما وعدتكيش بحاجة ومع ذلك مازلت باقول لك أنا ح أوضح كل حاجة لجدى.. ببساطة من حقه يعرف الحقيقة .. لازم..

ترتبك منى فتقول متراجعة.

– طبعاً ما وعدتنيش .. وأنا موش جايه أترجاك... أنا بس قلقت عليك جيت أطمئن .. إيه غلطانه؟! ودلوقت أنا مسافرة وبعدين أبقى قول لى عملت إيه .. عن إذنك.

وتخرج منى مندفعة..

ويتابعها مجدى بعينيه حتى يراها فى منتصف الحلقة التى يقف فيها جده.. يتكلمان لحظة فيكاد يغمى على مجدى مما يمكن أن يحدث.. وتواصل منى إندفاعها خارجة تدفع الناس من طريقها حتى تضع نفسها فى سيارتها وتنطلق تشق ظلام الليل..

ويقول الجد كمن يكلم نفسه: الله! طب ما أنا عارف! .. ثم يعود إلى العصا يتناولها ويواصل الرقص كأن شيئا لم يحدث..

ويخرج مجدى متعثر الخطوات لا يكاد يرى أمامه ولا يسمع شيئاً من الدوى الذى يطن فى أذنيه.

ماذا تراها قالت لجده؟!

وتتعلق عينا مجدى بعينى الجد ينتظر منه رد الفعل ..

ويتوقع مجدى هبوب الرياح..

وتتراجع أحلام منسحبة من الحفل ثم تستدير تجرى إلى غرفتها وينتبه الجد إلى إنسحابها .. ويقف أمام مجدى وجهاً لوجه متحدياً .. وينفجر الجد فيه صارخاً:

- مستنى إيه يا أستاذ.. حتقف تبص لى كده طول الليل.. إيه؟ حتفصل منى جلابيتين وصديرى؟ .. أجرى يا واد حصل عروستك..

ويردد لقمة كلام الحاج خلف الله وهو يرقص بالعصا منتشياً

- اجرى ياواد حصل عروستك!

لكنه يجفل مذعوراً أمام نظرة مجدى اليه يسرع داخلاً الى حلبة الرقص بعيداً عن العيون المتوعدة..

يتردد مجدى

يشخط فيه الجد

- اجرى يا واد قبل ما تروح منك ما تبقاش خايب.

يقلب مجدى الكلمة فى رأسه ويرددها مع نفسه« عروستك» صحيح من تكون «عروستك» هذه التى يقصدها الجد؟

هل تراه يقصد منى ؟

أم تراه يقصد أحلام؟

يجيئة صوت الجد .

- مستنى إيه يا مجدى حصلها .

«فعلا»

يقولها مجدى لنفسه.

- أنا مستنى إيه .. لما تروح منى !!

وينطلق مجدى إلى غرفة أحلام.. لكنه لا يجدها فيعود إلى جده حائراً ويضع الجد ذراعيه فى خاصرته وقد نفد صبره من « خيبة» حفيده... ويشير الجد صامتا إلى الطريق فيخرج مجدى مندفعاً إلى الطريق الزراعى باحثا عنها فى الظلام ..

كانت أحلام على أول الطريق تجلس فوق حقيبتها تنتظر من بعيد إقتراب أنوار السيارات المسافرة لعل إحداها تحملها معها إلى القاهرة عندما خيل إليها إنها تسمع صوت مجدى ينادى من بعيد..

وامام سرادق الحفل كان الحاج خلف الله والى جواره الدكتور حامد يتابعان مجدى المنطلق خلف أحلام..

ويغمز الحاج خلف الله إلى الدكتور حامد بعينه غمزة ذات معنى .. ولا

يتمالك الدكتور القشلان نفسه فيغرق في ضحكة طويلة سعيدة يشاركه الحاج خلف الله فيها بزهو من ادار معركته وانتصر فيها .. ويتبادل الإثنان نظرة تفاهم مشتركة .. ثم يغرقان في الضحك من جديد..

فهرس

الصفحة